مصطفى محمود

شلة الأنس



مصطفى محمود

شلة الأنس

الطبعة الرابعة


دار المعارف

البطل

سيرك ميدرانو الشهير. خيمة السيرك الكبير منصوبة فى خلاء فسيح بامبابة.. الزحام على أشده على الأبواب.. والتذاكر نفدت لأسبوعين مقدمًا.. والناس تتحدث عن النمر الرهيبة التى يعرضها السيرك.

الساحر الذى يقطع امرأة نصفين.. البهلوان الذى يقفز من ارتفاع مائة قدم إلى الأرض بلا شبكة.. الدب الذى يجمع ويطرح الأرقام من الذاكرة.. الكلاب التى تعرف اللوغاريتمات.. وفوق كل هذا معجزة الجيل.. جوليانو الرهيب الذى يفتح فم الأسد ويضع رأسه بداخله.

والذين يتزاحمون على الباب ولا يجدون تذاكر ينتظرون الخارجين ويسألونهم عن جوليانو.. هل شاهدوه حقًا وهو يضع رأسه فى فم الأسد.. ويحكى الخارجون الأعاجيب عن جوليانو..

وماذا سمعتم عن جوليانو.. إن ما رأيناه يفوق ما سمعتموه ألف مرة.. إنه شيء رهيب.. شيء فظيع.. إن الدم ليتجمد فى العروق من فرط الذعر، ويغطى الواحد منهم عينيه وهو يتكلم حتى لا يتذكر البشاعة التى شاهدها.. ماذا حدث؟!.. يسأل كل واحد فى فضول.. هل أكل الاسد أذنه.. يقولون إن الأسد أطبق فكه على أذنه وأكلها.. ويجيب الذين يتزاحمون وهم يشقون طريقهم إلى الخارج.. لقد حدث هذا فى عرض سابق فى روما منذ سنوات.. ومن ذلك الحين وجوليانو بأذن واحدة.. ولكنه مازال ماضيًا فى استعراضه.. إنه رجل مجنون.. إنه شجاع إلى درجة الخبل.. إن الإحساس بالخطر يسكره.. إنه مريض بلذة شاذة هى تحدى الموت.

إنه لشيء فظيع ذلك الإنسان.. إنه ليستطيع أن يفعل المستحيل أحيانًا.. إنه لأشد وحشية من ضوارى الغاب.

وكل واحد من مئات المتفرجين فى المدرج الكبير ينفعل ويتحمس.. ويشعر أنه يحب الدنيا.. ويحب نفسه.. ويزهو بنفسه كثيرًا.. أليس هو آدمى مثل جوليانو.. وما دام جوليانو استطاع أن يضع رأسه فى فم الأسد.. فإنه يستطيع أن يفعل أى شيء هو الآخر.. كل ما فى المسألة أن عليه أن يهزم الخوف.. وأن يكون شجاعًا مقدامًا.. فيغدو كل شيء فى يديه ممكنًا.

وأحمد يحلم وهو جالس بأعلى التياترو فى كرسى بخمسين

قرشًا.. ويشعر بالسعادة.. ويقزقز اللب فى انتظار جوليانو.. ويتتبع بعينيه فى فضول.. نمرة الدب.. الذى يجمع ويطرح الأرقام من الذاكرة شيء لذيذ جدًا.

المدرب ينقر بيده خمس نقرات وخمس نقرات.. فينقر الدب بقدمه عشر نقرات هى حاصل جمع الاثنين.. مدهش.. كيف استطاع أن يفعل هذا.

الرجل فى الخلف يقول إن هناك خدعة.. أين هى تلك الخدعة.. المدرب يغمز بعينه فيكف الدب عن النقر عند الرقم الصحيح.. والمدرج كله يضج الضحك.. إنها تكون خدعة أذكى من الحساب.. إنه ليكون دبا غشاشًا ذكيًا جدًا.. أذكى من أولادنا.. سميط.. وجبنة.. وبيض.. وسباتس.. سودانى ولب.. تصفيق.. هتاف.. برافو. النمرة الثانية.. البهلوان الذى يقفز من ارتفاع مائة قدم إلى الأرض بدون شبكة. شيء عجيب.. كيف سيفعلها.. مائة قدم تعنى ثلاثين مترًا تقريبًا.. تعنى ثلاثة أدوار عالية.. غير معقول.. هذا انتحار. الرجل يصعد على سلم الحبال.. الموسيقى تعزف.. الأبواق النحاسية تدوى بعنف.. الطبول تدق بشدة.. البهلوان ينظر إلى الأرض ليلقى بنفسه.. الموسيقى تصك الآذان.. يا ساتر.. البهلوان يقفز.. يا ساتر.. ينزل على قدميه.. يلوح للمتفرجين بمنديله.. إنه سليم.. لم يصب بخدش.. غير معقول.

الرجل فى الخلف يقول إن هناك خدعة.. إزاى؟؟!! البهلوان مقطوع الساقين ويلبس ساقين صناعيتين من الكاوتش.. دمه خفيف.. المتفرجون يقولون.. بايخة.. رجلين كاوتش إيه.

استراحة..

العمال يجهزون الحلقة استعدادا للنمرة القادمة.. يضعون فى الوسط أربع قوائم خشبية.. ويمدون عليها صندوقًا مستطيلاً.. هذه نمرة الساحر الذى يقطع الفتاة نصفين.

يدخل الساحر فى يده فتاة نحيلة..

يضعها داخل الصندوق..

يغلق الصندوق تمامًا.

يمسك بمنشار طويل مسنون.. ويبدأ فى نشر الصندوق. الرجل فى الخلف يقول.. قديمة.. ما هى نايمة جوه مقرفصة.. دى بنت صغيرة قد السحلية تتطبق فى منديل.

شوكولاته.. لبان.. أيس كريم.. لمون.. ساندوتش.

المتفرجون يتفرجون على بعض.

الجو لذيذ.

الهمس يسرى فى المدرج بأن النمرة القادمة هى جوليانو الرهيب.. بائع الساندويتش شاهده وهو يقود الأسد ويخرجه من قفصه.. والأم التى تجلس ومعها الطفلان تقول إنها لمحت يده

اليمنى ورأت فيها إصبعين فقط.. الأصابع الثلاث الأخرى أكلها الأسد.. والموظف الواقف بالباب يقول إنه يعرف حكاية جوليانو.. فقد بدأ حياته طفلاً لقيطًا.. ألقته أمه فى الغابة فنشأ وتربى مع الوحوش.. وعاش مع الأسود فى بيئتها الطبيعية.. وعرف لغتها.. وأن فى إمكانه أن يتكلم مع الأسد.

كل الأنظار تتجه إلى الحلقة.

يدخل جوليانو.. عملاق أبيض كتمثال إغريقى من التماثيل الرخام التى تقف عند مدخل الأكروبول.. يلوح بيده.. يده فيها إصبعان فعلا.. ورأسه فيه أذن واحدة.. والأذن الأخرى مقطوعة وممزقة.. شىء فظيع.

تصفيق حاد.. يقطعه زئير مرعب كأنه خارج من عشرة أسود فى وقت واحد.

الأسد الوحيد الذى يطلق هذا الزلزال يتلفت حوله فى وحشية.. وعيناه تطلقان الشرر.. يدور ببطء حول جوليانو ويهب على رجليه الخلفيتين يريد أن يهبشه.. تتحرك الأنظار وهى تحملق.. جوليانو يقف عاريًا حتى منتصفه.. لا يستر جسده سوى شورت.. ليس فى يده كرباج ولا عصًا.. ولا خنجر.. ولا مسدس.. أعزل تمامًا إلا من شجاعته.. ونظراته النارية التى يرد بها الأسد خاشعًا راكعًا إلى مكانه تحت قدميه.. تصفيق حاد مدو.. الأسد يزأر زئيرًا راعدًا.. الأسد يزأر.. الطبول تدوى..

الأسد يزأر ويفتح فمه مهزومًا.. الموسيقى تعزف. الأبواق النحاسية تنفخ بشدة.. يمد جوليانو يده فى بساطة ويضعها داخل فم الأسد.. صمت مطبق.. وجوم.. الرجل الذى فى الخلف وجهه أصف[illegible] ينطق كأنه أصيب بالخرس.. الأسد يزأر.. لا صوت.. الكر[illegible] الخشبية ترتجف من الزئير.. جوليانو يخرج يده وكأنه يخرجها من طبق مايونيز.. تصفيق حاد.. موسيقى.. وطبول.. وزئير راعد.. الأسد يهب على قائمتيه ويهجم على جوليانو يريد أن يبتلعه.. جوليانو يتقدم فى هدوء ويضع رأسه فى فم الوحش المفتوح.. دقات قلوب المتفرجين تكاد تسمع من فرط الصمت.. لحظات ثقيلة.. يخرج جوليانو رأسه من فم الأسد.. ويمسح لعاب الوحش على شعره كأنه بريانتين.. تصفيق.. إغماء تشنجات.. عرق بارد.. أطراف مثلجة.

أحمد يمسح بيده على عينيه.

شىء غير معقول.. إنه بطل.. مخلوق جبار.. إنه أقوى من كل وحوش الغاب مجتمعة.

كيف أمكن.. هذا شىء فظيع.. العقل لا يصدق.. ود لو أن الرجل الذى فى الخلف قال له أن فى الأمر خدعة.. ولكن.

ولكنه خرس تمامًا.

ومضى يجفف عرقه البارد.

وأحمد يحلم فى سعادة وهو يسير خارجًا يشق طريقه وسط

الزحام.. وهو يترنح كأنه سكران بخمر مجهولة.. ويشعر أنه قوى جدًا.. عضلاته من الصلب والفولاذ.. وعقله لا يهزم.. لا شىء يقف أمامه.

وطول الطريق يصمص شفتيه ولا يكف عن الدهشة.. ويعترف من وقت لآخر لنفسه.. أنه لا يفهم.

والحقيقة أنه لا أحد يفهم.

الوحيد الذى يفهم هو جوليانو نفسه الذى يقدم الطعام بيديه للأسد كل يوم.. عشر أقات من اللحم المفروم كالمهلبية.. فالأسد العجوز - ٥٠ سنة - سقطت كل أسنانه.

ولكن ما أهمية الحقيقة.

ما دام الناس سعداء جدًا بجهلهم.. وكلهم نشوان لأنه لا يفهم.

شلة الأنس

ليمو – أو حليمو هو عبد الحليم الشربتلى.. عجلاتى الحتة الذى يجتمع عنده صباح كل يوم عيال الحارة وتلاميذها الهاربين، وشبانها الصايعين، وخدامينها الذين جمعوا بضعة قروش من السمسرة، وشرعوا فى انفاقها فى ركوب العجل ومعاكسة خادمات الجيران. والقيام بحركات بهلوانية تستوقف المارة.

وعند ليمو عجلة طويلة عالية مثل المئذنة، مثل العجلة التى يركب عليها الحاوى فى سيرك الحلو ويجرى بها رافعًا يديه الاثنتين فى الهواء.

وليمو يحتفظ بهذه العجلة لنفسه ليركبها فى ساعات الرواقة. فيصفق له العيال.. ويقولون له: يا ليمو يا حدق.

وليمو يحب صنعته ويتفنن فيها.. ويجد لذة فى العمل والعرق ساعات كل يوم.. وأحيانًا يخترع أجزاء جديدة يضيفها لعجلاته..

لهذا فهو يعتبر نفسه مهندسًا وميكانيكيًّا كبيرًا. وإيه يعنى بتوع الصواريخ بتوع روسيا.. والله الواحد لو عنده فلوس كان فتن حاجات أجدع من كده.. أصل الدنيا بخت.. وبختك يابو بخيت.. يعنى لو كان أبويا ماضيعش القرشين اللى عنده مش كان زمانى دلوقت عندى ورشة كبيرة قد الدنيا وبأعمل صواريخ.. وإيه يعنى الصواريخ يا جدعان.. ما هى بسكليتات برضه بس بتدور بموتور سريع أوى.. أوى.. أوى.. والمسألة مسألة مخ.. بس اديني الفلوس.

وليمو العجلاتى ورشوان المكوجى وعزوز الخردواتى وبرعى البقال ومنصور الحلاق وأبو سريع الدخاخنى يؤلفون شلة فيما بينهم.. ويجتمعون فى حلقة فى ساعة العصارى من كل يوم يشربون المعسل والجوزة ويتحدثون فى الفن والاختراعات والصواريخ الروسى.. ويتوسط ليمو الحلقة ويتكلم فى حماس وهو يخبط جبهته بكفه.. وآدى يمين بالله العظيم يا جدعان إن الفكرة كانت حاتطلع فى دماغى امبارح لولا الشيطان الرجيم طيرها منى.. أصل شوفوا.. هى الحكاية بسيطة.. القطر الطويل العريض ده بيمشى ازاى.. بالبخار.. البخار بيفور يزق العجل.. والديزل بيمشى بالجاز.. والترماى بيمشى بالكهربا.. والعربية الفورد بتمشى بالبنزين.. الصاروخ كان فيه حاجة أقوى من الجاز ومن البنزين ومن الكهربا.. هى دى اللى بتطيره لفوق.. للسما

السابعة.. والحكاية كلها فكرة بسيطة جت للواد اللى اسمه جاجارين فى ساعة رواقة.. عرف إيه هى الحاجة العجيبة دى اللى أقوى من البنزين.

ويتدخل رشوان.. وهو فى العادة يتدخل دائماً فى الأحاديث العلمية.. وله لغة خاصة به تمتزج بألفاظ من الفصحى نتيجة دراسة سنة بأولية الأزهر.. وهو يتشدق باللفظ الفصيح فى تلذذ تماماً كما يتشدق الأطباء بالألفاظ اللاتينية.

– ومين يعرف يا أخى.. إذ لربما تكون الحاجة اللى بتقول عليها دى.. موجودة بيننا واحنا مش عارفينها.. من الجائز أن تكون فى قش الدريس أو فى سبلة الخيل.. أو لا مؤاخذة فى القمامة .. هو يعنى البنسلين جابوه منين.. مش من العفن ومن قاذورات الأرض.. وقل سيروا فى الأرض.. الأرض فيها أسرار الدنيا والآخرة.. ويا حبذا من يفكر ويتأمل.

– تمام يا عم رشوان.. هو ده اللى بقوله.. الواحد منا يقعد فى ساعة رواقة كده يخترع كل حاجة بس إيدك على الفلوس.. عشان تعمل مباحث لازم يبقى عندك فلوس.. وترجع تقول البخت هو كل حاجة.. تجيب البخت منين مادام إنت مكوجى وعندك عشر عيال وإيدك والأرض.

– والله يا أخى المجتهد لا يمكن أن يضيع أجره.. وحيثما يكون فيه عقل تكون فيه حيلة.. المجتهد لا يعدم باباً.. وفى

استطاعة المرء إذا ضاقت به الوسيلة أن يبعث باختراعه إلى مجلس الفنون.. وربنا جعل مجلس الفنون ليه يا مولانا.. مش عشان يبت فى هذه المسائل.. ويسهل الاختراع للعباد.

– أيوه بس لازم عشان توصل لمجلس الفنون.. لازم يكون لك حيثية.

– سبحان الله وعاوز تبقى مخترع من غير حيثية.

– طيب وحانجيب الحيثية منين يا عم رشوان.. ما تخليك معايا.. أمال، ما هو البخت برضه.. واحد زى حالاتى مولود من غير حيثية.. حاجيب الحيثية منين.. وإيه تنفع الحداقة من غير حيثية.

ويدخل أبو سريع الدخاخنى فى اللحظة التى يتوتر فيها الحديث فهذه لحظته المناسبة دائماً.. فيمد يده بالجوزة ليقول حكمته التى قلما تتغير.

– خد فك عنك بنفسين.. إيه لازمة الكلام ده كله.. بتتخانقوا على إيه.. إيه الحيثية واللى مش حيثية.. خد فك عنك بنفسين وأنت تبقى عندك حيثية.

وعزوز الخردواتى واد عضلات.. جسم مربع مثل أبطال جمال الأجسام وشعر يغطى الصدر ويخرج من القميص المفتوح.. وهو يحرص دائماً على أن يفتح قمصانه حتى فى أبرد شهور الشتاء..

وشارب طويل مشذب فى اناقة يعبث به دائمًا ويقول مختالاً.. شوف الموستاش بتاع اخوك يا واد.

ونساء الحتة لا عمل لهن الا التسكع فى دكانة عزوز ليشترين حلقًا أو بكرة خيط أو إبرة أو دبوس مشبك أو أى عذر يتعللن به للبقاء بجوار عزوز.. يا روحى عليك يا عزوز.. الدبوس ده بكام يا عزوز.. اخص عليك يا عزوز.. والنبى ما ادفع فيه إلا خمسة صاغ يا عزوز.. طيب خديه هدية منى يا روحى عشان عيونك.. عشان جمالك.

والبنات يغرن من بعضهن فيتنافسن على عزوز.. وعلى معاكسة عزوز والتسكع فى دكانة عزوز.. والنتيجة أن عزوز كما يقول ليمو.. وأكل نسوان الحتة.

وبرعى البقال راجل فى حاله.. وهو مطيباتى الشلة.. يوافق حينما يوافق أغلب الموجودين.. ويقول.. لا.. حينما يقولون.. لا.. ويقول.. مش عارف.. حينما يقولون إنهم مش عارفين.. وإذا اتفق أن أنفرد به أحدهم ليحادثه، فإنه غالبًا لا يتكلم وإنما يرد بين وقت وآخر قائلاً.. أى نعم.. تشكر.. معلوم.. وجب.. حسنًا فعلت.. يا سلام.. عملت طيب.. أصولا كده.. الله يخليك.. إلخ.. إلخ.. دون أن يبدى رأيًا واحدًا لأنه فى الحقيقة ليس عنده رأى يبديه.

ومنصور الحلاق فى عالم تانى. إنه يعيش فى حالة ندم..

وحسرة.. ويضع يده من وقت لآخر على خده ويغمغم.

– بقى ما كانش الواحد فتح كوافير سيدات كان عرف يعيش. هو فيه حد بيشتغل غيرهم. شوف محل كوافير نانا.. وجولييت.. وتاتى.. وفاتى.. وكيكى.. وميكى.. الواحد منا يحلق الرأس بشلن.. وكوافير الستات يحلق للخدامة بجنيه. مرة مكوة. ومرة شامبوه.. ومرة ميزمبليه.. ومرة صبغة.. ومرة نشيل الصبغة.. ومرة تجفيف.. ومرة فورمة.. وشغله كلها نصب فى نصب.. بقى ماكنتش أتخبط فى دماغى وأفتح كوافير سيدات.. يا عينى عليك يا منصور.

وهو دائمًا فى حالة ندم.. ومع أن فى إمكانه كما أن فى إمكان أى بنى آدم أن يتعلم صنعة كوافير السيدات ويفتح كوافير سيدات.. إلا أنه لا يفكر فى أن يتعلم.. وإنما يكتفى بالندم.. والحسرة.. وبقى ماكنتش اتخبطت فى دماغى وفتحت حلاق سيدات.. حلاق آنسات.. حلاق هوانم.. حلاق كتاكيت حلوين.

والحقيقة أنه نادم ليس بسبب الربح الذى راح عليه.. ولكن بسبب الفرصة التى تعطيها مهنة حلاق السيدات لصاحبها ليعيش مع السيدات والآنسات والفاتنات الطعمات.. ومنصور ليست عنده موهبة غير صنعته يمكن أن يعتمد عليها ليجتذب امرأة.. لأنه هو فى ذاته راجل لوح دمه واقف زى الرصاص.. ولا أمل له فى أن تتطوع امرأة فى يوم من الأيام وتنجذب إليه وتقف معه

لتحادثه.. فالحل الوحيد أن يصبح حلاق سيدات.

ونعود إلى ليمو.. وليمو ليست عنده مشكلة فى حياته غير أحلامه المستمرة باختراع الصواريخ.. والوقود الذى يشعل به الصواريخ ويرسلها لسابع سما.. وغير فطمطم.

وفطمطم ممرضة من عائلة فقيرة فى الحتة.. دخلت مدرسة الممرضات بمستشفى شبرا.. وتخرجت ممرضة تعمل بسبعة جنيهات فى الشهر.. وتلبس محزق وتكوى شعرها.. وتقول.. بونسوار يا ليمو.. وهى عائدة من البيت.. بدلا من مساء الخير.. وهى مع هذا بنت بلد أصيلة.. فى مشيتها.. وفى وقفتها.. وفى زغرة عينها.. ورفعة حاجبها.. ورمية رمشها.. وفى لماضتها.. وتلقيح كلامها على الراجل اللى مايعجبهاش.. ويا ويل الراجل اللى يفتكر إنها سهلة.. إن زغرة من عينها سوف ترعشه.

وأهل الحتة يقولون عنها إنها بت جدعة.. ومع هذا فهى مايعه منتهى المياعة.. أنثى منتهى الأنوثة.. فيها فتوة.. وحيوية.. وعنفوان.. وبكارة.. وشدة.. أحيانًا تجعلها تبدو وكأنها رجل أو أسد كاسر يزأر فى كل من يقترب منه.

وكل رجل عند فطمطم واد.. واد ياليمو.. واد يا برعى.. واد يا منصور.. واد ياعزوز.

ولا أحد كسر عين عزوز مثل فطمطم.. لم يستطع عزوز بكل الشعر الذى فى صدره وكل العضلات النافرة على أكتافه أن ينال

منها لمسة.. لا أكثر من «واد يا عزوز». هات الأسورة دى ياواد يا عزوز.. هات الخاتم ده ياواد يا عزوز.. غور من وشى ياواد ياعزوز.

وحينما يفقد عزوز أعصابه ويستبد به الجوى فى لحظة غزل ويحاول أن يقترب منها أو يلمسها.. يطرقع كفها الناعم على صدغه فى قلم سخن يجعل قفاه.. فى لون الكباب المشوى.

وهكذا كانت فطمطم دائمًا.. ضعيفة لدرجة تجعل الرجل يطمع فيها ويسيح أمامها.. قوية لدرجة تجعله ينكمش كالقط من الخوف.

وقد فتح ليمو عينيه على فطمطم.. على نزلتها فى الصباح حينما كانت تلميذة فى الإعدادية.. وحينما كانت تحمل كراساتها كأنها تحمل مدفعًا رشاشًا.. وحينما دخلت مدرسة الممرضات وأصبحت تلبس الكاب الأبيض.. وحينما تخرجت وأصحبت تلبس الجيبات والبلوزات والتايیرات المودرن وتختال بالديكولتيه أمام أجدع شنب على حد قولها.

وكانت فطمطم دائمًا تبهره.. كانت دائمًا تشعره بأنها حاجة عظيمة.. أعظم وأفخم منه.. وأرقى منه.. مع أنها إيه يعنى.. هكذا يقول دائمًا لنفسه فى ساعات الغيظ.. بنت ولا تسوى.. أبوها حتة مكوجى عربى لا راح ولا جه.. وبيتهم فى الحارة ما كانش فيه نور ولا ميه.. النور ما دخلوش إلا من سنة.. وهو يقول هذا

الكلام همسًا بالطبع فى نفسه.. أما أمامها فإنه يتحول إلى فأر مبهور.. فإذا اختفت من أمامه.. عاد يهمس فى نفسه.. طالعه فيها كده ليه البت دى.. إيه يعنى.. أبوها الأميرالاى.. مفيش حد مالى عينها.

وفى ساعات الرضا.. وهى قليلة.. كانت فطمطم تتحول إلى قطة وديعة وتقف فى دكانة ليمو وتعتمد بكوعها على البتك.. وتنظر إليه بعينيها الواسعتين الحلوتين كبحيرتين من عسل النحل.. وتغمز له فى لماضة.

– واد يا ليمو.. امتى بقى حاتروح القناطر سوا.

– ده يبقى يوم المنى يا عيونى أنا.

– وحاتاخدنى قدامك يا واد على العجلة وتسبب إيديك.

– إيديه بس.. دى مفاصلى حاتسيب.. وبطنى حاتسيب.. وركبى حاتسيب.

– إيه يا واد السرح ده.. إنت فاكرنى واحدة من البنات العبط اللى بتأخدهم لفة بشلن.

– لفة بشلن إيه يا فطمطم؟!؟ أنا مش عاوز آخدك لفة.. أنا عاوز آخدك العمر كله.. أنا بحبك يا فطمطم.. أنا بموت فيكى..

– لا مؤثر أوى يا واد.

– إنتى طول عمرك واخده كلامى هزار فى هزار وضحك فى

ضحك.. أنا باتكلم جد.. أنا بحبك يا فطمطم وعاوز أتجوزك.

– إيه ده الكلام اللى أنت بتقوله ده.. عيب يا ليمو.. جواز إيه.. إنت لسه صغير.. مش مكسوف وأنت بتقول الكلام ده.

– وامتى حاكبر فى عينك يا فطمطم.. ده أنا أكبر منك بعشر سنين.. ده أنا أخلف قدك.

– آه.. اوعى اسمعك تقول كده تأنى فيه حد يخلف قد فطمطم.. دى فطمطم دى تخلفكم كلكم.. فاهم.

– حاضر يافندم.. تخلفينا كلنا يا فطمطم.. ياما أنا مطفاظ من لماضتك دى.. أعمل لك إيه.. أعمل إيه بس.

– يا قمورى يا ليمو.. يا كتكوتى يا ليمو.. ما تعملش حاجة يا ملم.. أكبر شوية.. أكبر شوية بس.. وأنا أحبك.

– أكبر أعمل إيه يعنى.

– أعمل الصاروخ الروسى يا ليمو.. مش بتقول حاتعمل الصاروخ الروسى.

– أنا حاعمل أبو الصاروخ الروسى.. أنا أعمل جد الصاروخ الروسى.

وتأخذها حمى القافية فجأة فتقول:

– وله يا ليمو.. شنبك.. قول اشمعنى.

– اشمعنى.

– تريكو.. هيء.. هيء.

وتطلع تبرطع فى الحارة.

كل هذه الأحاديث يذكرها ليمو.. ويحفظها فى قلبه.. وهى أحاديث تبدأ دائمًا بأن تجعله يضحك.. وتنتهى بأن تجعله يبكى.. يبكى وحده فى فراشه كالطفل.

إنه لا يستطيع أن يمسك بها أبدًا.. إنها تزوغ منه.. وتفلت من بين أصابعه بضحكة ناعمة فلا يجدها.. وتمر عليه أيام أحيانًا ولا يجدها.

واليوم مثلًا هو يومه السابع وهو مرابط على باب دكانه دون أن يراها.. ولا هم له إلا أن يفكر.. فين راحت فطمطم.. بقى لها أسبوع مش باينة.. جرى لها إيه.

وفطمطم قضت طول هذا الأسبوع فى بيتها.. فى إجازة.. لا تبرح غرفتها الا لتذهب عند جارتها بسيمة أو بسبس كما تسميها.. لتعلب كوتشينة طول النهار.

وهى فى تلك اللحظة قد فرغت من اللعب وتمددت فى ملل على الكنبة وراحت تنادى بأعلى صوتها.. سعد.. سعد.. واد يا سعد.. واد يا سعوده.. سعوده.

وجسمها مسترخ وخصلات شعرها الأسود فى فوضى جميلة حول وجهها الأسمر الخمرى وعيناها العسليتان نعسانتان..

وصدرها النافر يشب فى سخونة وعنفوان. واد يا سعوده.

ويدخل سعوده.. شقيق بسبس.. شاب فى الخامسة والعشرين.. طالب بكلية الطب فى السنة النهائية يحمل فى يده كتابًا وعظمة فخذ يذاكر عليها.

– تعال يا سعوده لاعبنى دور كوتشينه.

وكان سعد يقف مترددًا.. يقلب بصره بين الكتاب مرة وبين عظمة الفخذ التى يذاكر عليها مرة.. وبين الجسم الحلو الممدد على الكنبة يدعوه بابتسامة.. ولم يستطع أن يرد طلب الحياة التى تناديه فألقى بالكتاب جانبًا.. ووضع عظمة الفخذ تحت إبطه وجلس يعد أوراق الكوتشينة.

– إيه العضمة اللى انت رايح جاى بيها دى يا وله.. إيه القرف ده.. انتو شغلكو كله قرف فى قرف.. تعرف أنا لما بشوفك ماسك العضمة دى بافتكرك حانوتى.

وسكتت لحظة ثم قالت فى نغمة ارتياب.

– تعرف إنى مش مصدقة إنك حاتتخرج فى يوم من الأيام وتبقى دكتور محترم زى الدكاتير اللى بشوفهم فى المستشفى.. مش معقول.. الواد سعوده أخو بسبس يبقى دكتور.. مش مصدقه.

– أمال حا يبقى إيه.. باش ممرض زى حالاتك.

– بتتريق يا واد يا دكتور.. طب وحياة دينى لا أوريك.

ولطشته قلمًا على صدغه.. حاول أن يرده فهربت منه وأخذ الاثنان يطاردان بعضهما بعضًا فى الشقة.. وكان سعد هو أول من بدأ يلهث من المطاردة.. ثم ارتمى على الكنبة متعبًا يلتقط أنفاسه.

– إيه يا واد يا دكتور.. مالك مهكع كده.. بقه بالذمة ده شكل راجل.. والنبى إنت شبه أختى نادية تمام.. شعر أشقر زى الحرير.. وتقاطيع محندقة.. وبق قد النبقة.. وصدر بناتى مفيش فيه شعرة توحد الله وتثبت الرجولة المشكوك فيها.. وجسم مسحوب زى السحلية.. آخر أنوثة وحياة دينى.. أنا مش عارفه فيك إيه يا وله..

وأمسكت لسانها قبل أن تقول.. مش عارفه فيك إيه بيخلينى أحبك.

وقد كانت فى تلك اللحظة حائرة.. أى شىء فى ذلك الولد النحيل الأبيض الرقيق المؤنث يجعلها تعبده حبًّا.. وتتمنى لو أنها أغرقت وجهه بالقبلات.. هى.. فطمطم.. البت الجدعة.. التى يركع عند قدمها رجالة بشنبات يشربون المعسل ويكركرون الجوزة ويشخطون فى السبع فيصبح فأرًا.

لماذا تركت هؤلاء السباع وأحبت هذا الحمل الوديع الرقيق.. لماذا فقدت أعصابها حينما نظرت إلى عينيه المليئتين بالضعف والحنان.

وكيف انهارت كل مقاومتها أمام هذا الولد المشكوك فى رجولته على حد تريقتها.

وكانت فى تلك اللحظة.. وهى تنظر إليه يلهث على الكنبة ويلتقط أنفاسه وقد استلقى على ظهره ككلب جميل من كلاب الزينة.. كانت تود لو أنها افترسته.

وخطرت لها فكرة.. فقالت فجأة:

– واد يا دكتور.. قوللى.. إنت ناوى تطلع فيها بقى لما تتخرج وتبقى أفندى دكتور قد الدنيا.

– أطلع فيها ازاى.

– يعنى تطلع فيها وتنسانا.. وتعمل قمع.. وتقول إيه البت الباش ممرضة فطمطم دى.

– وده معقول برضه.

– ودينى أقصف رقبتك.. ودينى أقلعك هدومك.. وأضربك علقة فى الحارة قدام الناس.. يا واد يا دكتور يا بن أم بلبل.. إنت تعرف فطمطم دى تبقى إيه.

وأمسكته من أذنه وجذبته منها بشدة وهو يصرخ:

تبقى إيه؟

– تبقى ستك.. فاهم.

– فاهم..

- تبقى إيه يا بن أم بلبل؟

- تبقى ستى.

- أيوه كده.

وتركت أذنه وهى تود لو لثمتها بشفتيها.. وكانت قد أصبحت حمراء مثل الجزرة.. وراح يفركها وهو يتألم ويتأوه كولد صغير ويغمغم:

- إنتى إيه.. إيدك كماشة.؟!

- إيد راجل يا واد.. إيد فطمطم المجدع.

- آى والله.. فطمطم المجدع صحيح.

وأمسك بيديها ونظر إليها فى إعجاب.. ووضع يديه إلى جانبها.. وكانت أصابعه تبدو إلى جوارها طويلة نحيلة رفيعة رقيقة مرهفة.. وأظافره مستديرة لامعة مشذبة.

وراحت فطمطم تعبث فى أصابعه بشغف وتلذذ وهى تقول فى نغمة لا تدل عليها تقاطيع وجهها:

- إيه دى.. بقى بالذمة دى إيدين راجل.. دى إيدين تعمل عملية جراحية..؟؟ دى إيدين بنت يا ابنى بالكتير تعمل تريكو.. والله يا بنى إنت بنت لقطه.

وأخذت تشدد قبضتها على يديه وهى تنظر إليها فى نشوة ثم رفعتها دون أن تدرى إلى شفتيها وقبلتها.

وكانت مفاجأة لسعد.. ألجمت لسانه.

وظلت أعصابه مشدودة وهو ينظر فى عينيها.. ثم كست عينيه الخضراوين غلالة رقيقة من الدموع.. وظل ممسكًا يديها فى تردد.. وقد وهنت عزيته تمامًا.. واسترخت قبضته.. وظلت عواطفه معلقة بيدها السمراء المكتنزة وأصابعها البضة.. وهو يتمنى لو أنه وجد القوة ليلثمها ويغرقها بألف قبلة.. ولكنه كان شديد الخجل.. وكان الخجل يقعد به عن أى بادرة يفكر فى إظهارها.

وشعرت فطمطم وهى تنظر إلى عينيه المغرورقتين أن فيهما الكفاية.. فيهما الجواب الذى يشفيها.. وفيهما الرد الذى تنتظره من سنين.

وظلت تعبث بأنامله وقد أسبلت جفنيها وسرحت بعينيها العسليتين فى لا شىء.. وقد أغرقتها سعادة لا نهائية لأول مرة فى حياتها..

وخيم الصمت..

ولم يعد يسمع فى الغرفة إلا.. تك.. تك.. تك.. تك.. تك.. ساعة اليد التى يضعها فى معصمه.

ومدت فطمطم يدها فى آلية وتناولت الكوتشينة. وبدأت تفنطها.. ثم أخذ الاثنان يلعبان دون أن يتكلما.

وكان حفيف الورق والكومى وهو يقش هو الذى يخشخش فى الغرفة الهادئة من حين لآخر.

وكان من الواضح أنهما لا يلعبان وإنما يتخذان من اللعب ستارا ليختلس كل منهما النظر إلى الآخر من خلف الورق.

ولأول مرة شعرت فطمطم أنها ضعيفة.

لماذا أحبت هذا الولد البناتى الذى لا يكاد يرفع رأسه من فرط الخجل.. وماذا ستكون نهاية هذا الحب.

ولم تستطع المضى فى تفكيرها.. كانت عواطفها تخنق عقلها.. وتخنقها.. وتقف فى حلقها.. كما يقف الطعام فى حلق الرجل الجوعان من فرط نهمه وشهيته.

كانت هى الأخرى تشعر بالشره والنهم نحوه.. وكانت عواطفها تقهرها.

ولم تعد فطمطم الصلبة القوية.

ودخلت بسبس.. ونظرت إليهما وهما يلعبان فى صمت وقالت فى دهشة:

- إيه ياولاد.. مالكو بتلعبوا وانتو ساكتين مبلمين كده.. إنتو بتلعبوا فى جنازة.

وأفاقت فطمطم تمامًا على صوت بسبس التى لم تشعر بوجودها إلا لحظة أن تكلمت.. ومسحت على شعرها وابتسمت.. أما سعد فقد رفع رأسه كأنه يرفعها بعد غطس طويل تحت الماء.. وتلفت حوله فى ارتباك.. ووضع الأوراق من يده.. وما لبث أن قام متسللا إلى غرفته.

وقالت بسبس لصاحبتها:

- إيه مالكم.. متخانقين.؟؟

- أبدًا.. ولا حاجة.

- لا.. لازم فيه حاجة.

- حاجة إيه يا بت.

- إيه ونا مش عارفه.. وأنا دقه عصافير، وأنا تايهه عن الغرام الذى فى قلب جولييت الحارة.

ونظرت إليها فاطمة فى مزيج من الغيظ والخجل.

وأردفت بسبس فى صوت رقيق.. وهى تدفعها فى صدرها.

- ولا يهمك يا بت.. الحب للجدعان والجدعات.. ولا يحب إلا البنات المجدع.. أجيب لك سيجارة تفكى عن نفسك على رأى أبو سريع.

وهرعت إلى الدولاب وأخرجت علبة كوتاريللى. أشعلت منها سيجارتين وجلست الاثنتان تدخنان فى الشباك.

وكانت فاطمة تدخن بمزاج وتشفط الدخان شفط معلمين وتبلعه فى صدرها ثم تخرجه من أنفها فى خيوط ودوائر كثيفة.. واقتربت منها بسبس فى حنان حتى أصبحت رأسها فى رأسها وقالت:

هيه.. إحكيلى بقى يا جولييت الحارة.

أحكى لك على إيه.

وسكتت فاطمة لحظة ثم دفعت بسبس فى صدرها:

إحكى لى إنت عملت إيه مع أبو سريع.

- قطيعة.. هو ده راجل.

- ليه.. ماله.

- آل جاى عاوز يتجوزنى.

- وماله.. مش بتحبيه.. وطول عمرك نفسك فيه.

- خايفة يا فاطمة.. خايفة ليطلع راجل مش نافع.

- ليه مش نافع ليه.. ما هو راجل ملو هدومه وجدع وأجدع جدع.. وكسيب ومفيش حد زيه فى الحتة.

- كسيب إيه.. وأنا حاينوبنى إيه من مكسبه.. ده راجل كل فلوسه رايحة على الجوزة والمزاج والكيف.

- عشان عازب ووحدانى.. إوعى تصدقى إن فيه حاجة اسمها كيف الراجل ما يبطلوش.. الراجل لما يحب يبقى كيفه مراته.. هى مش الدنيا.. مش احنا اللى بيقولوا علينا الدنيا.. واحنا اللى بندخل الرجاله الدنيا.

- والله يا أختى هم اللى بيطلعونا من الدين والدنيا.

- أيه يابت. مالك النهارده عامله زى المعددة كده..

- ياما نفسى أعرف آخرة فلاحتك ونصاحتك دى إيه.

وتذكرت فاطمة خيبتها.. فسكتت.

ووضعت بسبس يدها على خدها وغمغمت:

- مهما الستات طلعوا أو نزلوا.. هم ولايا برده.

وضحكت فاطمة وهى تنظر إليها.

- أما أصحاب الميتم اللى ورانا لو سمعوك دلوقت يأجروك بجنيه فى الليلة.. ده انت النهارده كلامك يبكى الأمة العربية بحالها.. إيه ده.. إيه النكد ده.. يا دهوتى إنتى حاتخلينى أشق هدومى.. هو الحب يعمل كده.

- ويعمل أكتر من كده.. دلوقت تجربى وتشوفى.

- فال الله ولا فالك يا شيخة.. أنا لا يمكن أقعد معاك تانية بعد كده.. أنا حاسيب لك البلد وأمشى.. لحسن لو قعدت شويه كمان حارمى نفسى من الشباك.. سعيدة.

وأثناء خروجها لم تنس أن تمر على غرفة سعد.. وتقف دقيقة أمام الباب تقرأ الفاتحة.

- بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، إهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم.

- إيه ده يابت ده.

- بقرا الفاتحة على الأموات الغلابة إللى أنت مرصص

عضامهم فى الأودة.. ياعينى عليهم مين حايقرأ عليهم الفاتحة غيرى.. تلاقى أهاليهم بيطلعوا عليهم فى القرافة ويقرءوا عليهم وهم مش عارفين أن تربهم فاضية ومنفضة.. يا حسرتى.

وعادت تقرأ الفاتحة بحماس أكثر.

– بسم الله الرحمن الرحيم.. الحمد لله رب العالمين.. الرحمن الرحيم.

– إيه يابت شغل التياترو ده.. امشى.

وأمسك بعظمة الفخذ يهددها.. فهرولت تجرى على السلم.

* * *

وعلى باب البيت فوجئت بشبح رجل طويل عريض يملأ الدرفة المفتوحة ويرتفع حتى يبلغ الشراعة.. وكان صوته الأجش يملأ الحوش.

– بت يا فاطمة..

وصرخت فاطمة من المفاجأة.. ثم ما لبثت أن ضحكت..

– يوه.. هو انت.

– أيوه أنا.. إيه.. مش مالى عينك.

كان ليمو العجلاتى.. بقامته الطويلة العريضة يملأ الباب.. ويزغر فى وجهها فى شراسة..

– كنت فين يابت.

– كنت مطرح ماكنت.

– فاطمة.. انتى مش حرة تمشى على كيفك.! الحتة فيها رجاله مسئولين عنك.

– سلامات ياسى رجاله.. من امتى عملت شيخ غفر على بنات الحتة.. ليمو.. بص لى كويس.. فتح.. شوف مين قصادك..

– قصادى واحدة ست.

– واحدة ست أرجل منك.

– قوليلى كنتى فين طول الأسبوع ده.. عاوز أعرف.

وكان صوته خشناً.. فأجابت عليه بصراخ أكثر خشونة.

– كنت مطرح ما كنت.. هم حطوك مباحث عليه.

– أنا مسئول عن سيرك.

– إنت مسئول عن سير البسكليتات بتاعتك بس.

– البسكليتات بتاعتى مش سايبه زيك.

– إخرس يا كلب.

وألقت عليه نظرة هائلة بعينيها اللتين اتسعتا حتى أصبحتا كعينى بقر الوحش.. فتضاءل أمام نظرتها وانكمش وانخفض صوته.

– فاطمة.. إنتى عارفه إنى باحبك.

– أنا أعرف إنك بتحبنى.. لكن ما أعرفش إنك بقيت شاويش تسوقنى قدامك وتقولى يمين شمال.. رايحه فين جايه منين.. وعشان إيه ده كله.. وليه.

– عشان بحبك وباغير عليكى.

– غير فى نفسك.. طق زى ما انت عاوز.. لكن مالكشى دعوة بيه.

– فاطمة..

وخفت صوته جدًّا حتى أصبح همسًا مبحوحًا.

– أنا قعدت الأسبوع ده كله مش عارف آكل ولا أشرب. قلقت عليكى.. مش لى حق أقلق عليكى.. وأسأل عليكى برضه.

– اسأل بالذوق.. من غير أباحه.

– ده أنا ابن حتتك.. وجارك.. وحبيبك.

– وهو شرع الحب إنك تبقى قليل الأدب مع اللى بتحبه.

– آدى خدى أهو.. أنا غلطان.

وأعطاها خده.

ولاحظت وهى تنظر إلى خده.. أن له فكًّا بارزًا ورأسًا ضخمًا.. وكتفين عريضين مثل رفين من الحديد.

وخطرت لها صورة الرجل الآخر بعوده النحيل المتهافت.

وودت لو أنها لكمت هذا الصدغ الغليظ الذى يبدو كأنه مصبوب من الخراسانة.

وكانت تقف شاردة تنظر إلى عنقه وصدغه.. بينما وقف هو غضبان لأنها لم تصفعه.

والظاهر أنه لاحظ أنها ترمقه بنظرة غريبة.. لأنه قال وهو يغمغم:

– فطمطم.. مالك.. بتبصى لى كده ليه.

– معجبة بيك.

– أنا عارف إنى مش مالى عينك.. لكن معلهش.. مسيرها تتعدل.

– حاتتعدل حاتبقى إيه يعنى.

– حاتشوفى يا فطمطم.. وحاييجى اليوم اللى تقولى فيه ياريتنى عرفت مقدارك يا ليمو.. وحاتبقى تجرى ورايا بالمشوار ماتلاقينيش.. حابقى فى السما السابعة.

– لما حاتعمل الصاروخ الروسى وتطلع فيه مش كده.

– إنتى بتضحكى.. لكن حاتشوفى يافطمطم.. يعنى اللى عمل الصاروخ ده مش بنى آدم.. أهو بنى آدم زيه زيى.. لا زايد عنى إيد ولا رجل.. بس ربنا ألهمه فى ساعة رواقه..

– ربنا يروقها لك.

- وأجيب منين الرواقة يا فطمطم وانت بوزك شبرين كده.

- إذا كان بوزى هو اللى حايلهمك.. آنا أفرده لك.. لك عليه أخليه زى بوابة المتولى.. بس يالله.. شد حيلك واستلهم.

- يا روحى عليكى يا فطمطم.. أهو كده الكلام الحلو اللى يروق المزاج.. أهو دلوقت حاتنزل علىّ الأفكار اللى زى الورد.. امتى بقى حانروح القناطر يا فطمطم.

- قناطر إيه بقى.. ولزومها إيه القناطر.. ما نروح القمر فى الصاروخ وخلاص.

- يا روحى عليكى يا فطمطم.. والنبى للقمر يا قمر.. طوالى بلا محطات.. أهو كده الكلام اللى يفرح.. أهو دلوقت أنا اتردت لى روحى.. وحاروح للإخوان وأنا فرحان.

- سلم لى ع الإخوان.

ومشى يتطوح إلى دكانة أبو سريع كأنه ديك سرقته السكينة نشوان.. يدندن بفمه.. ثم يمد يده إلى علبة صغيرة فى جيبه يفتحها ويأخذ منها فتفوتة صغيرة برأس عود كبريت.. يستحلبها فى فمه.. وهو يمصمص شفتيه فى لذة.

- يا سلام على عنبرك يا شيخ رشوان.. أهو ده العنبر الحر صحيح.. جابه منين ياخويا الشيخ سيبويه ده.. فتفوتة صغيرة قد حبة السمسم عملت فى جتتى حريقة..

وكان أول شىء فعله حينما وصل إلى شلة الإخوان عند دكانة

أبو سريع أن جرى إلى الشيخ رشوان فاحتضنه وهو يهتف:

- إيه ده العنبر بتاعك ده يا شيخ سيبويه.. ده عنبر يجنن. جبته منين ده.. ده ماحصلش فى الدنيا مثاله.

فأجاب الشيخ وهو ينبعج فى قفطانه من فرط الشعور بالرضا:

- هذا عنبر همذانى حر من بلاد البحرين من عند الشيخ شخبوط.. وليس فى الخافقين مثاله.. وياحبذا لو أخذته فى قدح من القهوة بالحبهان.

- دى فتفوتة صغيرة عملت فى جسمى حريقة.. دنا كنت صاحى الصبح مش قادر أحرك إيد ولا رجل.. يا سلام.. ياملك الله الخفى.. وده بيطلعوه منين يا شيخ رشوان.

- ده بيخرجوه من الحوت.. الحوت فى الشتاء القارس يفرز هذا العنبر فى الماء.

- يا سلام.. قلت لى.

وأدار ليمو الكلام فى مخه وجعل يفكر.. ثم قال بعد فترة:

- معنى كده إن الحرارة مخزونة فى العنبر ده.. والحوت بيتدفا بيه فى الشتا.. ويطلع القايض فى البحر.

- تمام.. هذا عين الصواب.

وغرق ليمو فى التفكير.

- ياسلام.. ده يعنى لو الواحد قدر يعرف سر الحرارة فى العنبر ده. وقدر يحرقه ويستخرج منه القوة اللى فيه.. يا سلام.. ده يقدر يسوق بيه قطر.. صاروخ.

- إحنا حانرجع لحكاية الصواريخ تانى.. عنبر إيه كيان اللى حاتسوق بيه صاروخ ياليمو.

- يا اخواننا ما تستقلوش حاجة.. الميه بخارها بيمشى قطر.. والبنزين دخانه بيطير طيارة.. تبقى قليلة على العنبر اللى فيه النار دى كلها إنه يطير صاروخ.. دأنا من ساعة ما أخذته وأنا طاير زى الصاروخ.. يا سلام.

والظاهر أنه اقتنع بهذه الفكرة.. واختمر فى ذهنه أن فى العنبر سرًا.. وأنه إذا استطاع أن يحرقه فإنه سوف يعثر على القوة الدافعة التى تحرك صاروخًا.. لأنه سرح فى ملكوت آماله.. وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة طفلة.. وحينما غمزه أبو سريع وناوله الجوزة.

- خد فك عن نفسك.

رفض أن يتناولها.. وردها لأبو سريع فى رفق.. ولكن أبو سريع أصر على أن يشاركه.. وقال وهو يهمس فى أذنه:

- خد ده ماركة الصاروخ.

ولكنه رفض.. وهو ما يزال يبتسم ويغمغم.

- الصاروخ هنا دلوقت.

وأشار إلى دماغه.

وارتفع صوت الشيخ رشوان فى هذه اللحظة يبسمل ويحوقل.

- قل سبحانه اللهم يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء.. بيده الخير.. وهو على كل شىء قدير.

ورفع ليمو يديه للسماء وهو يغمغم:

- قادر يعدلها.

وأردف الشيخ رشوان.

- لا تستهينوا بقدرة الله.. يعنى هو الدهب الأسود الذى فى بلاد العرب.. والذى يدر ذهبًا نضارًا.. يعنى هو حد تعب فيه.. أبدًا.. جاء سين من الناس ودق ماسورة فى الأرض القفر فأخرجت رزقًا هبابًا لا ينفد.. وتقول إيه فى دى.. ده ربنا له ملكوته الخفى.. الرزق تحت رجلين كل واحد.. بس أين من يدق عليه الماسورة.

ولطم منصور الحلاق على خده معقبًا على كلام الشيخ فى نبرة كلها حسرات.

- أى والله كلامك حكم.. كل واحد رزقه تحت رجليه.. بس فين اللى يدق عليه وفين اللى يلاقيه.. يعنى أنا كان فى إمكانى أفتح

كوافير سيدات.. وأكسب دهب.. ليه مافتحتش.. وليه فتحت دكان جربان أحلق فيه للجدعان.. ياريتهم كانوا نسوان.. كان عقلى فين.. لكن نرجع نقول حكمة ربنا.. فيه واحد ربنا يدله.. وواحد ربنا يذله.

وقال الشيخ رشوان.

– طول ما انت حى رزقك جاى ياحلاق الأقفية.. لا تتبطر على نعمة الله.. والا زالت.. ولم تجد أقفية تحلقها.

– الحمد لله.. اللهم إنى رضيت بالقفوات.

وتكلم برعى البقال لأول مرة ليطيب على كلام الشيخ رشوان.

– آى نعم الحمد لله.

ولم يجد كلامًا آخر يضيفه فسكت.

وأخذ ليمو يمسح على جبهته ويهرش رأسه مستغرقًا فى التفكير.. وفجأة قام مستأذنًا من الجماعة.

والظاهر أنه عثر على السر الذى فى العنبر وعرف الطريقة الخطيرة التى يفجر بها الحرارة الخفية المخزونة فيه لأن وجهه كان مشدودًا ومشحونًا بحماس لا حد له.

وانصرف مهرولا فى خطوة سريعة.. مستعجلا الوصول إلى البيت.

* * *

كانت فاطمة لا تعرف هل تفرح أم تحزن لأن «سعد» نجح وتخرج وأصبح دكتورًا.. أصبح اسمه الدكتور سعد طبيب امتياز بمستشفى الدمرداش.

سعوده ابن أم بلبل الذى كانت تضربه على قفاه وتبوسه.. أصبح دكتورًا يلبس بالطو أبيض ويضع سماعة فى عنقه وينظر بوقار إلى المرضى وينادى الممرضات بصوت حازم حمش.

إنها تشعر برجفة فى بدنها لا تدرى لها سببًا.. هل سيتركها سعد وينساها.. ويطلع فيها كما كانت تقول دائمًا.. أم أنه سيظل دائمًا حبيبها.

ولكنه لم يتغير نحوها.. إنه ما زال هو.. هو.. سعوده.. الولد الضعيف الطيب المتردد المتهافت الذى تضربه وتشتمه وتبوسه.. إنه ما زال هو.. هو.. هو.. ابن أم بلبل الذى يسكن إلى جوارها فى بيت مهكع مع أخته بسبس.. والخمسة عشر جنيها التى يقبضها لم تجعل منه شيئًا.. ولم تجعل من حياته شيئًا.

إنه ما يزال يعيش عيشته الفقرى.. ويلبس بيجامته الدمور التى تخيط له خروقها.

وهو ما زال يحبها.. ولا يطلب منها شيئًا أكثر من أن يراها ويلعب معها كوتشينة.. وإن كان فى الحقيقة لا يضايقها شىء فى الدنيا أكثر من أنه لا يطلب منها شيئًا.

إنها تحس أحيانًا وكأنه ليس رجلا.. لماذا لا يطلب منها شيئًا..

لماذا لا يختطفها بين ذراعيه ويعتصر عودها.

إنها تود لو أنها احتضنته وارتشفت روحه.. أما هو فيبدو على الدوام هادئًا وديعًا كالقط المستأنس لا يهبش ولا يخمش.. دائمًا يتمسح بها فى وداعة.. وهو دائمًا مؤدب جدًا بدرجة تغيظ.. وهى تخجل من نفسها حياله.

آه.. يارب.

لماذا خلقها الله ممرضة.. وخلقه دكتورًا.

إنها لن تحاول أن تخدع نفسها.. طبيب الامتياز الصغير الذى يقبض خمسة عشر جنيهًا كل شهر لن يظل هكذا دائمًا وإنما سوف يكبر ويصبح طبيبًا نائبًا.. ثم طبيب قسم ثم رئيس قسم.. ثم مدير..وكل خطوة من هذه الخطوات سوف تحمله بعيدًا عنها.

وهى لن تستطيع أن تحتمل مشقة التفكير فيه وهو بعيد.

لقد تعودت أن تجده بجانبها تدعوه بإشارة من يدها فيأتى ساعيًا إليها كالقط ويجلس عند قدميها، حتى لقد أصبحت تشعر أنها تملكه.. وأنه قطها الصغير.. سعوده.

ولم تستطع أن تنام.. ظلت تتقلب على جنبيها.. كأن فى فراشها جمرات تكويها.. ووجدت نفسها تهب فجأة وتلبس ثيابها وتهرول إلى جارتها بسبس.

وطرقت الباب وهى ترتعد

وفتح لها سعد.. وكان يربط رأسه بمنديل.

وسألته فى قلق:

– مالك.. رابط راسك ليه؟

– بتوجعنى.. مصدعة.

وضحكت وهى تنظر إلى العصابة التى عقدها حول رأسه كما يفعل الفلاحون.

– وتلاقيك كمان دلكت راسك بخل ولمون زى ما بتعمل أمى.. أما انت دكتور روبابيكيا بصحيح.. ما سمعتش على الإسبرين ياوله يا دكتور.. اكتبه لك فى روشتة.

– مالقيتش عندى إسبرين.

– أما انت حالك عجيب.. ابعت للعطار.. ازعق عليه م الشباك.. مفيش فيك حيل تزعق.. استنانى طيب وأنا أجيب لك.

ونزلت تهرول.. وغابت دقيقة.. وعادت ومعها قرصين إسبرين.

وأشعلت وابور السبرتو وعملت له كنكة شاى.. ومالبثت أن أقبلت عليه تحمل كوبًا من الشاى المضبوط.. وحلت له العصابة ودلكت له رأسه بيدها ثم وضعته فى الفراش كالطفل وناولته الشاى.

– اشرب.. شفطه.. شفطه.. لحسن سخن عليك.. أيوه كده.. شاطر.

وتلفتت حولها ثم قالت سائلة:

– أمال فين بسبس.

– بسبس سافرت البلد هى وبابا وماما وبلبل..

– حاييجوا إمتى.

– مش عارف.. دول لسه مسافرين النهارده.

ومضت تدلك له رأسه.

– لسه راسك بتوجعك.

– لا.. أحسن دلوقت.

– بسرعة كده.. ده يبقى دلع.. مش صداع.

وضربته على خده.

– تعرف إنى مش مصدقة لغاية دلوقت إنك بقيت دكتور.

– ولا أنا والله العظيم.. ما بافتكرش إنى دكتور إلا أما أبص ألاقى نفسى فى المستشفى.. وحواليه المرضات بيقولوا لى يا دكتور.. والعيانين بيقولوا لى يا دكتور.

وفجأة قاطعته بارتياب..

– بتعمل إيه يا واد مع الممرضات.

ثم صرخت فى غل وهى تشده من شعره.

– بتعمل إيه قوللى.

– ما انتى عرفانى.. يعنى حاعمل إيه.

وهدأت فجأة وقد زايلتها الشكوك.. وأجابت باطمئنان شديد:

– أيوه.. عارفاك أوى.. أوى.

وسألته وهى تصب له الشاى.

– حاتقعد قد إيه فى مستشفى الدمرداش..

– فاضل لى شهرين فى الامتياز وبعدين حايوزعونا ع البلاد ومش عارف حايودونى فين..

وهتفت والكنكة ترتجف فى يدها:

– إيه.. حاتسيب مصر بعد شهرين.. مش معقول.. وحاتروح فين..

– مش عارف.. الصعيد غالبًا لأن ترتيبى مش متقدم..

– يا خبر.. الصعيد حته واحدة.. مش ممكن.. مش ممكن أعيش وبينى وبينك بلاد..

وأمسكت بكتفيه وتشبثت به وعادت تهتف بصوت حزين يائس:

– مش ممكن أعيش.. وبينى وبينك بلاد.. مش ممكن.

وغمغم هو بصوت مرتجف قائلا إنه أخبر أمه برغبته فى الزواج منها لكن أمه رفضت.

وقالت فاطمة باستنكار:

– وانت مش راجل يا سعد.. انت مالك ومال أمك.

– ما أقدرش أخالف ماما.

وكان يبدو عليه الصدق والبساطة كالعذارى القليلات الحيلة.

وشعرت فاطمة بالغيظ.. وبالندم.. ولكن حبها كان أقوى من ندمها.. وأقوى من عقلها.

كانت تحبه كقطها الصغير الأنيس.. وكان ما يزال هو.. هو.. سعوده.. ووجدت نفسها دون أن تدرى تقبله.. وتلثم خصلات شعره الذهبية، وتجتذبه إليها بشدة.. وبقلة حيلة.. وهو يقبلها بحنان.. ويشدها إليه بلا وعى.

والتقيا فى عناق طويل.

وشعرت بأنها تضعف.. وتضعف.

ولم تعد فاطمة المجدع.

أصبحت أضعف من أضعف بنت فى الحى.

* * *

كانت فاطمة تبكى بشدة وحرقة.

لم يبق أمل تتعلق به.

لا فائدة.

لن تفوز بحبها ولا بحبيبها.

لن يكون حبيبها ملكا لها فى يوم من الأيام لأنه عاجز عن أن يكون ملكا لنفسه.

إنه ضعيف متردد متهافت.. تطويه أمه تحت جناحها.. وتأخذ ماهيته وتعطيه مصروفه تمامًا كما لو كان طفلا.

وحتى لو تزوجته فلن تكون تابعة له ولكنها سوف تكون خدامة لأمه.

إنه لا شىء سوى قط جميل من قطط الزينة.. يصلح لأن توضع فى عنقه فيونكة.. ولكنه لا يصلح لأكثر من ذلك.

وهى تشعر بالندم.. وبالألم.. لأن حبها غلبها على نفسها وعلى ندمها.. لأنه حب ذليل يائس فاشل لا حل له سوى البكاء.

ولأول مرة شعرت فاطمة أنها ضعيفة.. وأنها ولية.. وأن الستات كلهن ولايا كما قالت لها بسبس فى إحدى المرات.. وأنها فى حاجة إلى رجل شديد يحميها من نفسها ومن نزواتها.

وكانت تجلس مكسورة الخاطر ويدها على خدها.. تمامًا كما تفعل الولايا.

وتذكرت ليمو.. صديق طفولتها.. شعرت أنه طيب.. وابن حلال.. صحيح أنها لا تحبه.. ولكنها تستطيع أن تعتمد عليه.. وهى

فى يأسها ووحدتها فى حاجة إلى شخص تعتمد عليه.. ومسحت دموعها.. وارتدت ثيابها وذهبت إلى بيت الشربتلى وكانت طول الطريق تمسح دموعها.

ولم يكن ليمو هناك.. واستقبلتها أمه بأهلا وسهلا يافطمطم.. ياوردة الحتة.. يا نوارة الحارة.. يافلة مصر كلها.. دحنا زارنا النبى.. ده لو كان ليمو هنا كان رقص عشرة بلدى م الفرحة..

وبوسة تطرقع على الخد ده.. وبوسة تطرقع على الخد ده.. وأحضان.. وسلامات.. وانتى كنت فين ياختى من زمان مش بنشوفك.. وازى اسم الله عليه أخوكى فتحى.. ومامتك.. وباباك.. وحشتونا.. والنبى لولا بسلامته حوده عيان وأشيته بعافية.. كنت جيت.. ده انتو وحشتونا قوى.

وكانت جالسة على الأرض تقشر بطاطس فجلست فاطمة تقشر البطاطس معها.. ألف وستين يمين لا يمكن تمدى إيدك.. ياختى حانتعبك.. كرسى يا واد لأختك.

ولكن فاطمة رفضت أن تجلس على كرسى.. وأصرت على أن تجلس معها على الأرض وتقشر معها البطاطس..

تسلم إيدك ياروحى.. إيد مانعدمهاش أبدًا.

واختلست الأم نظرة إلى وجهها فلاحظت عينيها المغسولتين بالدموع فخبطت على صدرها بكفها وهتفت فى قلق..

– مالك ياختى.. كفى الله الشر.. فيه حاجة.

– أبدًا.. بس عيانة من يومين.

– سلامتك ألف سلامة.. والنبى ماعلمنا.. هو الحسد.. يقطع الحسد وسنينه.. كل الحارة بتقول فطمطم.. فطمطم.. فطمطم لبست.. فطمطم قلعت.. فطمطم اشترت.. رقعوكى عين.. والعين تقصف المسمار.. إلهى تتقلع عينيهم.. أقوم أبخرك يا روحى..

– لا والنبى خليكى.. وحياة حوده خليكى.. كتر خيرك.. خلاص الحمد لله.. رقت وفقت لما شفتك.

– نهارنا نادى إن شاء الله.. ربنا يروقها لك كمان وكمان وارتفع صوت خطوات ثقيلة على السلم.

– ده اسم النبى حارسه ليمو جه أهه.. لازم قلبه حس إنك هنا..

ودخل ليمو.. وكان وجهه فى الأرض وكتفاه العريضان منكسين كالعلم المطوى.. ولكنه حينما رأى فاطمة أشرقت ملامحه.. ورقصت ابتسامة واهنة على شفتيه ما لبثت أن تحولت إلى ابتسامة واسعة تحتضن كل شىء، وقفز إليها بخطوة راقصة.. وأمسك بيدها.. وراح يهزها فى شغف..

– أهلا.. أهلا حياتى.. أهلا روحى.. أهلا قمورتى.. نورت بيتنا.. أزغرد.. والنبى نفسى أزغرد..

كان طيبًا حبوبًا لطيفًا..

وربتت فاطمة بيدها على يديه وسألته وهى تبتسم:

- عامل إيه فى الصواريخ الروسى..

واكتست عيناه بسحابة حزن وقال بصوت يائس:

- بلاش سيرة الصواريخ دى.. مفيش فايدة.. ماليش بخت.

ومسحت على يديه بحنان وهى تهمس:

- معلهش يا جاجارين.

- إنتى بتضحكى عليا.

- أبدًا والنبى دنا عاوزه أضحكك.

فقال فى بساطة:

- كان نفسى أعمل صاروخ عشان نطلع فيه سوا القمر. وتكتب عنا الجرايد.

- معلهش مش لازم نطلع فى صاروخ يا ليمو.. نطلع فى حنطور كفاية.

- والنبى صحيح؟.. من بقك لباب السما.. تيجى نطلع نتفسح النهارده فى حنطور.

- نطلع يا ليمو.

- يا أرض انشقى.. وابلعى العوازل.. أنا النهارده النبى داعيلى.. يالله يا ختى إيدى على كتفك.

وأخذها من ذراعها للباب.

- على مهلك ياليمو.. هى الدنيا طارت.

- الدنيا طارت.. وغزالة عقلى طارت.. وصامولة مخى طارت.. دنا طول عمرى مستنى اليوم ده.. دنا طول عمرى نفسى أقعد معاكى على شط النيل أقزقز ترمس.. يا سلام.. فاكرة زمان لما كنا قد عقلة الصباع.. وكنا نسابق بعض فى أكل الترمس.. ونحوش القشر ونحطه فى قرطاس ونضحك بيه على الناس.. يا سلام علينا وعلى أيامنا يا ولاد.

وأخذها من ذراعها وخرج بها من الشقة.

وكانت أمه تتبعها بوجه متهلل ونظرات عطوفة.. وكانت ترفع يديها للسماء وتهمس.. النبى يارب يجعلها من نساك ويجعلك من رجالها يا عبدالحليم يابن زنوبة ويجعل فى وشك القبول ويخزى عنك عين الشيطان وعين الحاسد الجبان.. إلهى تقبلها منى دعوة ولية فى ساعة هنية.. يارب.

ثم قالت بصوت مرتفع وهى تميل على درابزين السلم:

- ما تغيبوش ياولاد.

وأسرعت تجرى إلى الشباك.. وظلت تلاحقهما بنظراتها حتى دخلا الحنطور الواقف عند رأس الحارة.

وظلت واقفة فى الشباك حتى سمعت آخر.. جل جل.. جل جل.. جل جل.. تغرق فى ضوضاء المرور.. ثم عادت إلى

مكانها على أرض المطبخ وهى تكلم نفسها وتلوح بيديها.

بيحبها ياعينى.. مجنون بيها.

وتمصمص شفتيها.. ياعينى يابنى.. إلهى يجعل لك قسمة فيها.. ثم ما تلبث أن ترفع يديها إلى السماء وتعود إلى الموشح إياه.. إلهى يجعلها من نساك ويجعلك من رجالها ويجعل فى وشك القبول ويخزى عنك عين الشيطان. إلخ.إلخ.

وبينما كانت الأم غارقة فى دعائها.. كان الاثنان جالسين فى الحنطور ساكتين.. كان ليمو ساكتًا لا يجد ما يقوله.. ليمو الغلباوى الذى لا يعرف أحد كيف يسكته.. سكت أخيرًا.. ولم يجد كلمة يقولها.

وكانت فاطمة ساكتة هى الأخرى تنظر إليه بعطف. وتفكر.. وتسرح.

الأيام التى عاشتها كانت تمر أمامها كشريط طويل.

حياتها وهى طفلة صغيرة تلعب فى جنينة المنشاوى وتسرق الليمون والجوافة الخضراء من الشجر.. وطعم الجوافة الخضراء الحلو اللاسع يعود إلى فمها.. ورائحة زهر الليمون.. ونباح كلب الحديقة.. وصياح الجناينى.. وصراخ ليمو.. تعالى يا فطمطم قبل ما الراجل يشوفنا.

وحياتها فى المدرسة الإعدادية.. حينما كانت تكتب على التختة لمدرس الجغرافيا.. طظ فيك.. الله يشفيك.. ثم تأكل علقة آخر النهار.

وحياتها فى مستشفى شبرا وهى تتلقى أول دروسها فى الجبس.. وتدخل قافية جبس مغ البنات.

وحياتها مع سعد.. والعذاب الذى دخلته برجليها.. و الأخيرة وهى كسيرة الخاطر.

وأحست بذراع ليمو حولها وهو يربت على نهما.

- مالك يا فطمطم.. سرحانة فى إيه؟

وأفاقت.. لتنظر حولها.

- أبدًا.. ولا حاجة.

ثم ضحكت.

- كنت راكبة الصاروخ بتاعك.

- ووصلتى لغاية فين.

- وصلت لغاية عندك.

وكانا قد تركا الحنطور ووصلا إلى شاطئ النيل وجلسا على دكة.. وكان ليمو يهرش رأسه يحاول أن يجد كلامًا للمناسبة.. وقال بعد فترة من التفكير.

- فاطمة.. أنا عاوز أقول لك كلام كتير.. إنت يمكن

ما تعرفيش عنى حاجة لأننا عمرنا ما اتكلمنا مع بعض جد.. لكن.. لكن دلوقت لازم تتكلم جد.. أنا بحبك يا فاطمة وعاوزك.. حاتقولى إيه العجلاتى ده كمان اللى مش لاقى يأكل وعاوز يتجوز. لكن أنا بأكسب كويس.. وأقل شهر بيطلع لى تلاتين جنيه.. وساعات أربعين.. وفى شهور الأعياد خمسين.. ويوم ما حانتجوز حايبقى عندى حماس أكتر للشغل وحاكسب أكتر.. أنا تعبت يا فاطمة.. تعبت من الجرى.. وعاوز كلمة منك تريحنى.

وأجابت فاطمة فى ضعف:

– خلاص يا ليمو.. أنا راضية باللى تشوفه.

وصاح ليمو فرحان:

– كده.. كده يا فاطمة. وإمتى؟!

زى ما تحب.

كانت تتكلم فى آلية وهى تنظر إلى مياه النيل.. وتغالب دموعها.. أما ليمو فكان يصفق فى فرح. ويهتف:

– أزغرد.. نفسى أزغرد.. الدنيا مش سايعانى.

* * *

كانت الشلة معقودة فى دكانة رشوان.. ورشوان يتصدر المجلس.. ويلوح بيده قائلاً:

– يا سلام يا رجالة.. يا سبحان الله.. شوفوا احنا كنا فى إيه وصبحنا فى إيه.. فين أبو سريع.. فين ليمو.. مين كان يصدق

إن أبو سريع يتجوز ويستقيم وينصلح حاله كده.. ويلبد فى البيت ما يطلعش.. ولا يعرفش إلا طريق واحد من الدكان للبيت ومن البيت للدكان..ويطلق الجوزة بالتلاتة. لا سهر.. ولا شرب. ولا دخان.. أما صحيح البنى آدم ده حاله عجب.. وليمو والصواريخ اللى كانت بتضرب فى دماغه. راحت فين بعد الجواز. فين المباحث اللى كان بيعملها ليل نهار عشان يخترع الوقود الذرى.

ما هو أصله اتجوز الوقود الذرى.

– أى والله هى أصل الصواريخ كانت بتضرب فى دماغه من جريه ورا فطمطم

وقال عزوز وهو يمصمص شفتيه متلذذًا:

– يا روحى عليكى يا فطمطم.. أما حتة بنت يا ولاد.. أما حتة نتاية.. مجدع يا ولاد مجدع.. أموت أنا فى النتايات المجدع.. وقود ذرى صحيح.

وعاد رشوان يلوح بقفطانه.

– والله وحشتنا قعدتك يا أبو سريع.

وأجاب عزوز:

– سيب أبو سريع فى حاله.. ده غلبان.. ده بياكل كل علقة وعلقة.. يا نهار أزرق.. بالشبشب.

– ما هذا التشنيع يا بائع الغوايش والحلقان.

– أبدًا والله ما هو تشنيع يا شيخ رشوان.. ده أنا باسمعه بودنى كل يوم.. ما أنا ساكن جنبه الحيط فى الحيط.

– إزاى بقى.

– الولية بسبس دى خدت الجوزة كسرتها ورمتها على السطوح.. واستلمت أبو سريع الغلبان.. لما يصحى معكتن يدور على الاصطباحة.. تصبحه بعلقة على نافوخه تفوقه.. ولما يرجع بالليل تقشطه وتاخد إيراد الدكان.. ولما يطلب منها مصروف عشان المزاج والتياسى مع الإخوان.. تمسيه بعلقة.

– وهو راضى بذلك.

– هو بيحبها.. بيموت فيها.. وبيقول لك شبشبها ولا قعدة الندامة معاكم.. والغريبة أنه بيسمن على الشباشب.. وخدوده الصفر اللى كانت داخلة لجوه زى خدود المومبيا.. دلوقت وردت.. وسمنت.

– عشان بطل المدعوق اللى كان بيشربه.. والله أنا فرحان له.. والله الاستقامة حلوة.. ولو كانت بالشبشب.

– استقامة إيه دى حاجة تكسف.. ده الرجالة اليومين دول بقوا نسوان.

– الرجالة طول عمرهم نسوان.. اسألنى أنا يا بائع الغوايش والحلقان.

وقال منصور الحلاق.

أيوه اسأله هو يا عزوز.. ما هو متجوز اتنين.

– الحمد لله على الستر.. وحاتجوز اتنين كمان لأكمل دينى.. ودنياى

– الظاهر إنك استحليت الشباشب يا شيخ رشوان.

– يا جاهل. الشباشب تحدث فقط حينما تكون متجوز واحدة أما إذا تزوجت اتنين فهما تتنافسان على أرضائك. وإذا تزوجت أربعة.. فأنك تكون البلحة المقمعة.. الغالية المدلعة.

– شىء عجيب.

– أمال يا جهول.. وهذا سر التشريع الإلهى.. ولله حكمه تجل عن أفهام البهائم أمثالك.

– والله حلوه دى، طيب ما الواحد يتجوز أربعة، ويعيش زى البلحة المقمعة.

– ما تقدرش يا عزوز الغوايش والحلقان. ولا يغرنك أنك مثل الثور فإنها لأجسام البغال وعقول العصافير.. وأنا أراهنك انك لو تزوجت واحده فإنها سوف تجعل منك شخشيخة مثل الشخاشيخ التى تبيعها فى الدكان.

– ويعدين لك يا رشوان يا كحيان إنت كمان.

– أنا فقط أنصحك لوجه الكريم.

– وأنا أتجوز ليه واحدة واللا أربعة.. ما أنا عندى النسوان بالحفان ملطعين فى الدكان.. تعال يا عزوز.. روح يا عزوز.. خدنى السينما يا عزوز.. فسحنى يا عزوز.. دنا عايش زى الخليفة هارون الرشيد.

– كلهن خادمات يا عزوز الغوايش والحلقان يضحكن على عقلك ويتسلين عليك.. ليقلن بعد ذلك فى مجالسهن.. ومجالسهن دى تبقى مطابخ السادة الكرام أمثالى.. يقلن إنهن مشين مع الأفندى العبيط صاحب دكان الغوايش. ولطشن منه غويشة مجانًا.

–وبعدين لك يا شيخ الفقر فى طولة لسانك ده.

– أنا أنصحك..وافتح عينيك على الحقيقة المرة يا أبو قردان إن الأعزب يعيش كالكلب الجربان ويموت كالكلب الجربان.. يلتف حوله نساء كالدبان.. من أردأ الأصناف.. كوتاريللى وسمسون أرضى. وسجاير لف.. ويضيع عمره بلاش فى بلاش. أنا أخوك ويهمنى أن تظل فى الشلة معنا تونسنا مجانًا ولا تغلق عليك أبواب الزوجية الهنية.. ولكنى مع ذلك أخلص لك النصح يا خباص الغبراء.. تزوج.. تدخل دنيا عمرك ما دخلتها.

– دمك خفيف.. يا رشوان الفقر.. والله تلاقيك واكل شبشبين على الصبح.. ومش هاين عليك تبقى عضو فى نقابة حاملات الشباشب لوحدك.

– روح يا شيخ إلهى ينعم عليك بشبشب منهم.. ينصلح حالك وتشوف النعيم.. دى شباشب الهنا يابنى.. ما يدوقهاش إلا الموعودين.

وهنا دخل منصور الحلاق فى الحديث فجأة ورفع يديه إلى السماء هاتفًا.

– يارب أوعدنا يارب..يارب اجعلنا من المقبولين عندك فى نقابة شباشب الهنا.

– أبوه كده.. عد إلى الحق يا منصور عشان ربنا يفتح عليك أبوابه.

– بس إزاى يا شيخ رشوان.. الواحد يتجوز إزاى.. دنا إيرادى من حلاقة القفوات ما بيطلعش عشرة جنيه فى الشهر ما يأكلوش كلب.

– رضا.. حد لاقى.. دى عشرة جنيه دى كانت زمان ماهية وزير فى بلاط هارون الرشيد.. وكان الوزير يتجوز بيها عشرات من الحليلات والخليلات والجوارى الحسان.. يعنى هو لازم يبقى عندك فريجيدير وبوتاجاز.. هارون الرشيد نفسه لم يكن فى بيته ماء ولا كهرباء ولا راديو ولا تليفزيون وكان يركب عربية كارو.. وأهو كان هارون الرشيد ملك الزمان.. وثروة قارون اللى قعدوا يحكوا عنها الأعاجيب كانت كلها مائتين من الجنيهات بالعملة النحاسية..وكان قارون يطبخ طعامه على القوالح.. لم يكن

عنده حتى باجور جاز.وفرعون الفراعين الذى كان يحكم مصر كلها لم يكن عنده مجارى ولا بيت أدب. وكان يتبول فى العراء.

وأنت الآن يا منصور الفقر تعيش فى شقة فيها تواليت وماء وكهرباء وراديو وتركب أتوبيسًا وتدخل سينما. وتعيش فى عصر الذرة. وتشاهد صواريخ صحيح.. مش صواريخ هلس زى بتوع صاحبك.

-أى والله كلام حكم يا شيخ.

- احمد ربك يا شيخ، ده انت فى نعيم لم يعرفه الملوك.

- أيوه صحيح. بس يعنى.

- بس يعنى أيه.

-بس يعنى لو كان الواحد فتح محل كوافير سيدات مش كان ربنا فتح عليه أكتر وأكتر وكان..

- أنت حاتقعد طول عمرك تندب على دكان حلاق السيدات.. البكا فيما فات لا ينفع فضلا عن أنه يفوت عليك الانتفاع بالموجود.. ويضيع عليك حاضرك.. افرح بالموجود يصبح فى بقك كالسكر المعقود.

- أى والله يا شيخ سكره.. انت كلامك النهارده زى السكر المعقود.. هى الشباشب بتعمل كده.. إذا كانت بتروق المخ كده. اللهم أوعدنا يارب.

- شوف يامنصور ياحلاق الأقفية..الدنيا حلوة ورزق ربنا كثير.. وربنا موسعها على العباد.. وهو قد أعطى لكل واحد عقلا يوسع به على نفسه كمان وكمان. ولكن الحمار من أمثالك يستعمل عقله ليضيق على نفسه بالندم والحسرة على ما فات.. وبعدين فى الآخر يقعد يقول.. الدنيا غلب.. يارب ليه تعمل فينا كده. طيب وهو ربنا ماله.

- أيوه صحيح وربنا ماله.

- الدنيا قدامك واسعه. عيش واتمتع.. حد قال لك تغلق على نفسك دكان عزوز النحس.. وتقعد تبكى حظك.

- وانت مالك بقى ومال عزوز النحس يا شيخ الفقر أنت كمان.

وضحك شيخ الفقر وضحكت الشلة ضحكة حشاشى مجلجلة. وأخذ الشيخ يشلح أكمامه ليضحك بحرية أكثر وأكثر.

ودخل فى تلك اللحظة ابن الشيخ آتيا من البيت ومال على اذن أبيه يوشوشه.. فقام الشيخ مستأذنًا لحظة وذهب إلى البيت.

وغمغم منصور وهو ينظر فى اثر الشيخ الذى راح يهرول بقفطانه:

- حلاوتك ياشيخ رشوان.

ومصمص بشفتيه:

- كلامك حكم والنبى.

ودخل عزوز دكانه ليلبى طلبًا.. بينما استطرد منصور فى حديثه مع نفسه.

- أنا عارف الواحد مستنى إيه.. كلهم اتجوزوا واحد ورا التانى.. وأنا قاعد زى عفريت المآتة.. مستنى إيه..؟ قاعد حارس على تركة القفوات كأنها حاتطير لو سبتها ليلة ورحت اتجوزت.. ليه.. على إيه ده كله.. والا إيه يا برعى.

وكان برعى البقال يجلس صامتًا كعادته يستمع ويصغى ويشارك فى الضحك وفى الحزن.. ويشتغل مطيباتى الجميع دون أن يتكلم.

وقال برعى فى آلية:

- أى والله.. تمام يا منصور كلامك فى محله..

- مش برضه كلامى فى محله.

- فى محله والنبى.

- مش آن الأوان الواحد يدور له على بنت الحلال.

- آن الأوان معلوم.

وجاء الصبى يستدعى منصور للحلاقة. فقام وهو يتمطى ودخل دكانته.. وبقى برعى وحده

وكان يبدو وحيدًا جدًّا.. قليل الحيلة.. يتلفت حوله كحيوان

ضال ويهمهم بالجملة التى ما زالت عالقة بذهنه.

- آن الأوان والله.

وكان يفكر فى بنت الحلال.. وكان أحوج ما يكون الإنسان إلى بنت الحلال وهو فى وحدته وقلة حيلته.

وقد اشتد شوقه فى تلك اللحظة إلى بنت الحلال.. فمد عنقه فى الفضاء أمامه يبحث فيه تائهًا كما يفعل طائر عطشان يتلمس الماء.. ويهمهم.

- آن الأوان والنبى..

ثم يردف فى صوت ضعيف متهافت مشتاق:

- بس فين هى بنت الحلال.

مدام س

الساكن فى فندق الليدو بالغرفة رقم ٢٨ المطلة على البحر رجل أعزب وحيد جدًّا.

ويزيد من إحساسه بالوحدة أنه فى غرفة واسعة بسريرين.. وهو أحيانًا من فرط الوحدة ينام نصف الليل على سرير والنصف الثانى على السرير الثانى.

وهو أحيانًا يتيقظ فى الصباح فينظر إلى الفراش الخالى بجواره ويلوح بيده قائلاً: صباح الخير يا أخ.. نمت كويس؟.. أنا كمان ما جانيش نوم.. صوت البحر دوشنى طول الليل.

وأحيانًا يوجه كلامه إلى امرأة قائلاً فى حنان:

مالك يا روحى.. المغص رجع لك تانى.. لازم من المية اللعينة المالحة بتاع الأوتيل.. أنا قلت لك ألف مرة ما تشربيش من الميه دى.. أشربى بيرة أحسن.

وهو ليس مجنونًا يكلم نفسه هكذا.. ولكنه فقط رجل وحيد جدًّا.

وقد تعود أن يفزع فى البداية حينما كان يضبط نفسه متلبسًا بالكلام مع روحه.. ولكنه مع الوقت بدأ يكتشف أنه ليس الوحيد الذى يكلم روحه.. فعلى محطات الترام يقف ناس محترمون جدًّا جوات يكلمون نفسهم.. وفى الشارع وفى البيت.. وفى السوق.. وفى كل مكان.

إن كل الناس مجانين.

وهو فى رحلته إلى المصيف لم يصطحب معه إلا مجموعة من الروايات البوليسية يضعها بجواره بالفندق ويقرؤها وهو مضطجع فى فراشه وحاجبه مرفوع من الدهشة والحماس يتحمس لأرسين لوبين.. والمفتش تيل.. وباتريشيا.. وجونسون.. وشرلوك هولمز.. والدكتور وطسون.. ويعيش معهم.. وينام ويصحو على أخبارهم.

وهو لم يحاول الاختلاط بأحد منذ نزوله بالأوتيل..والمرة الوحيدة التى احتك فيها بأحد هى المرة التى اصطدم فيها بمدير الأوتيل مسيو جورج على السلم.. وتبادلا الاعتذار.. وسأله المدير هل هو مستريح فى غرفته.. فأجابه بأن كل شىء على ما يرام ما عدا الماء المالح جدًّا فى الحنفيات.

وقال له المسيو جورج حينئذ أن هذه المياه المالحة تأتى من بئر

رومانى.. وأنها صحية مفيدة مثل مياه فيشى وأكثر.

وساعتها ضحك على هذه النكتة الظريفة.. وشكر المدير.. وانصرف.

وفيما عدا هذا اللقاء العارض.. فانه منذ نزوله بالفندق لم يلتق بأحد.

وهو من فرط عزلته ووحدته وصمته أصبح شخصية جذابة ولافتة للنظر بالنسبة لنزلاء الفندق.. وأصبح الكثيرون ينتظرون نزوله فى الصباح ببدلته الكاملة وقميصه المقفول.

وحكاية القميص المقفول الذى لم يفارقه.. كانت مثار نكات وتعليقات.

أما هو فكان يلبس القميص المقفول ببساطة لأنه يخشى البرد ويحتاط لتيارات الهواء.. والزرار العلوى فى القميص هو أول زرار يزرره.. هذه عادته.. لم يغيرها حتى فى القاهرة.. فى جحيم أغسطس.

وهو يذهب ليصطاف.. ويعود دون أن يلبس المايوه.. ودون أن ينزل البحر.

يشم الهواء.. ويغير مناظر فقط.

ومع هذا فهو يتمنى أن ينزل البحر.. ويتمنى أن يلبس المايوه.

وأحيانًا حينما يخلع عاريًا ويقف بالكالسون فى الحمام ينظر إلى

نفسه فى المرآة ويلوح بيديه ورجليه بفرح. ويعوم فى البانيو.

ولكن هذه المغامرة لا تتعدى باب الحمام.. فخارج باب الحمام لا تجد إلا الأستاذ محجوب بكامل ثيابه.. وبقميصه المقفول.. وبالنظارة السوداء على عينيه.. يلبسها فى الشمس وفى الظل.. وفى النهار وفى الليل.

وهو لا يشعر بالراحة إلا إذا وضعها على عينيه.. وكأنها بارفان يضعه بينه وبين الناس.

وهو لم يشعر أنه شديد الحاجة إليها كما شعر فى هذا الفندق.. فهو دائمًا يتحسس عينيه ليتأكد أن النظارة فوقها.

والسبب أنه دائم النظر إلى مدام س من خلف النظارة..

ومدام س.. امرأة فى الثلاثين.. جميلة.. جمالها تراه بغريزتك أكثر مما تراه بعينيك.. ناعمة.. أنثوية.. جسمها حريرى كل خطوطه مستديرة تسبح فى بعضها البعض.. لا تعثر فيها على بروز واحد وكأنها مخلوقة من الألماظية بلا عظام أو أن عظامها كعظام الحمام طرية تنثنى ولا تنكسر.

وهى مثل كل نزلاء الفندق.. تجلس بالمايوه فى الصالة.. وتقطع وقتها فى التريكو.. وإلى جوارها طفلها.. وتحت قدميها كلبها.. وكلبها جميل جدًا.. أجمل من طفلها.

وهى قلما ترفع عينها من التريكو..

ولكنها مع هذا تشعر بوجود الأستاذ محجوب.. وتبتسم أحياناً فى نفسها لهذا الرجل الغريب الذى يجلس على شاطئ مرسى مطروح كما يجلس فى مجلس الدولة ببدلته كاملة وبقميصه مقفولاً.

أما هو فإن مدام.. س.. كانت تعنى عنده أكثر من مجرد رؤية عابرة.. كانت تعنى رواية طويلة يعيش فيها بأعصابه.. ويحلم.. ويسهر.. ويفرح.. ويحزن.. ويغضب.. ويثور.. كلما وضع جنبه آخر الليل على الفراش..

وقد اضطر أن يعترف لنفسه أخيراً إن رواية مدام س.. أهم بكثير من روايات باتريشيا وأرسين لوبين فوضع رواياته البوليسية جانباً واكتفى بأن يغمض عينيه ويسرح.

وفى المرات القليلة التى كان كلبها الجميل ينفلت منها ويمضى متجولاً بين الغرفات حتى يدخل غرفته.. كان يهب من فراشه ويسوى ثيابه فى حرج وذهول.. وكأن الذى دخل الغرفة آدمى.. وليس كلباً.

وكان الكلب فى تلك اللحظة يتوقف وينظر باستغراب إلى الرجل الذى قفز من فراشه.

وكانت تمضى ثوان وكل من الاثنين يحملق فى الآخر حتى يدرك الرجل أنه فى حضور كلب.. وكان حينئذ يتحول فجأة من الذهول إلى الملاطفة.. فيحتضن الكلب ويقبله فى فمه وأذنيه وعينيه.. وكأنه امرأة.

وكانت هذه الزيارات الخاطفة من الكلب.. تتركه فى حالة روائية حادة.. يظل فيها صاحياً حتى الصباح.. يتخيل أشياء كثيرة.. كثيرة لا معنى لها.

وكان هذا الصباح من تلك الأصباح التعيسة التى لم يذق فيها دقيقة واحدة من الراحة.. فعيناه وارمتان حمراوان وشعره منكوش وبيجامته فوضى.. والسريران الاثنان فى الغرفة مهوشان مما يدل على أنه ظل يتنقل بينهما طوال الليل.. وشكل الغرفة يدل على أنه كان طول الليل يبحث عن النوم.

وكان فى جلسته الحائرة على طرف الفراش.. وعيناه ذاهلتان ينظر بهما حوله.. كان يبدو أنه يحاول أن ينسى الليلة الطويلة المرهقة التى مرت به.

ودخل الخادم يحمل الفطور.. فجلس يأكل بطريقة أتوماتيكية.. يلتهم ويمضغ ويبلع.. وكأنه يلوذ بالأكل لينسى نفسه.. وسأل الخادم فجأة كيف يمكن أن ينزل إلى البلد.. فقال له الخادم إنه يستطيع أن يستأجر عربة بحصان.. وابتسم لهذا الخاطر.. وشعر أنها ستكون حكاية ظريفة أن يستقل عربة بحصان ويمضى يتأرجح فى الطريق الصحراوى.. وجلاجل الحصان تدوى فى أذنيه:

وكان أول شيء فعله بعد الفطور هو أن ارتدى ثيابه كاملة ونزل إلى صالة الفندق وقد رسم على شفتيه ابتسامة عدم

اكترات.. وألقى نظرة خاطفة ملهوفة من خلف النظارة إلى الكرسى الخالى حيث تعودت أن تجلس مدام س فلم يجدها.. وما لبث أن أقنع نفسه أن غيابها لا يهمه.

ولكنه مع هذا عاد فبحث عن كلبها.. ثم أخذ يحوم حول المكان متلفتا بعينيه..

وخرج إلى الشاطئ يذرع الساحل بنظرة دقيقة فاحصة. ولكنه لم يجد أثرًا لها ولا للكلب.

وكانت عربة صغيرة ذات حصان واحد تقف أمام باب الفندق.. فأسرع يركبها.. وطلب من السائق أن يذهب به إلى البلد.. وما لبث أن غاص فى جلسته.. واستسلم للنسيم الذى راح يدغدغ خديه.. وأغمض عينيه على جلاجل الحصان.. وتيقظ فجأة على صوت السائق يسأله:

– حاتنزل فين فى البلد.

– أى حته.. أى حته فيها أجزخانة.. أنا عاوز أروح الأجزخانة.

وطرقع السائق بكرباجه فى الهواء ومضى يتمخطر بعربته الصغيرة.. وغرق صاحبنا فى أفكاره..

وكان يفيق من لحظة لأخرى على صوت الحصان.. ورنين الأجراس التى تتراقص حول أذنيه.

وتوقفت العربة.. ونزل عند أول أجزخانة فى طريق البلد.

وأخرج من جيبه حزمة من الروشتات القديمة المهلهلة.. ودخل فى حوار طويل مع الصيدلى.. حول عشرات من الأدوية كلها أدوية للقلب.. وكان الصيدلى ينظر له باحترام وقد ظن أنه طبيب.. وكان هو يبتسم فهو الوحيد الذى يدرك سر هذه الخبرة العميقة بالأدوية..

إنها خبرة أربعة عشر عامًا من مرض لا يبرأ.. روماتيزم فى القلب.. فى الصمامات.. لا علاج له.. هكذا قال له كل الأطباء.. علاجك الوحيد هو الوقاية.. لا تصعد سلمًا.. لا تأكل أكلة دسمة.. لا تعرض صدرك للتيارات.. لا تشرب خمرًا.. لا تدخن.. لا تسرع فى مشيتك.. لا ترهق نفسك.. وعشرات التعليمات كلها مكتوبة فى رأسه.. لا.. إنها ليست تعليمات.. إنها تهديدات.

.. وسأله الصيدلى فى بساطة:

– خريج سنة كام يا دكتور.. لازم إنت وأخويا اتخرجتوا سوا.. هو كمان من دورك كده.. بيشتغل دكتور فى بورسعيد.. لازم تعرفه.. مفيش حد ما كانش يعرفه.. أصله كان كابتن الكورة فى الكلية.. وبطل الجامعة كلها.. الدكتور لويس خاه.. حضرتك فاكره؟.

وكان صاحبنا محرجًا.. لا يعرف ماذا يقول بالضبط.. وكان

بفرك يديه.. وقال بعد تردد:

– ما أكدبش عليك.. أصلى عمرى ما لعبت كورة.. وضحك الصيدلى واعتبرها نكتة.

وخرج الأستاذ محجوب من الصيدلية يحمل لفافة من الأدوية.. وتوقف فى الشارع يهرش رأسه ويحاول أن يتذكر شيئًا..

هناك شىء ناقص..

إنه كان يريد أن يشترى شيئًا آخر غير الأدوية..

وظل واقفًا فى مكانه برهة يحاول أن يتذكر.. ثم لمعت عيناه فجأة.. ونظر حوله باحثًا عن محل خردوات..

آه.. ها هو..

ودخل المحل.. وغاب لحظة.. وخرج يحمل مجموعة من الأشرطة الحريرية.. وكان يبدو عليه أنه فرحان بهذه الأشرطة.. وكان يتأملها فى ضوء الشمس.. ويضعها الواحدة بجانب الأخرى.

وكان أول شىء فعله حينما عاد إلى غرفته بالأوتيل.. أن ألقى بنفسه على الفراش..

كان يلهث.. ويمسح عرقه.. وأغمض عينيه فترة حتى استرد أنفاسه.. ثم فتح لفافة الأدوية.. وابتلع بضعة أقراص.. ووضع يده فى جيبه وأخرج الأشرطة الملونة.. وبدأ يرصها إلى جوار بعضها

البعض على الفراش.. وينظر إليها بفرح طفل.

ودخل الكلب الجميل فى تلك اللحظة يهز ذيله.. فأقبل عليه يداعبه.. ثم بدأ يجرب عليه ألوان الشرائط.. يلف كل واحدة حول عنقه وينظر إليها من بعيد ثم اختار الشريطة الحمراء ولفها حول عنقه وعقدها فيونكة.. ثم جذبه فى سرور من أذنه.. وأطلقه ليجرى على السلم.. وكأنه يطلق تلغرافًا.. أو قبله.. وجلس فى مكانه.. وشرد طويلاً..

واضطر أن يعترف أمام نفسه أخيرًا.. إن مشوار البلد فى ذلك الصباح لم يكن له إلا هدف واحد.. هو أن يشترى هذه الأشرطة الملونة..

وشعر بالخجل لهذا الاعتراف.. إنه يحب.. إنه يحلم بمغامرة.. إنه يريد أن تكون له حكاية يحكيها..هو الرجل فى الثلاثين الذى شابت سوالفه فى الوحدة والمرض.. هو الرجل الذى عاش يقرأ الحب فى الكتب ويتفرج عليه فى السينما ويسمعه فى الأغانى دون أن يجد الجرأة ليتفوه به لامرأة..

هو.. الأستاذ محجوب مدير قلم المعاشات فى ديوان الموظفين.. الرجل الذى يقول عنه كل الناس إنه وقور جدًا.

ولكنه كان يشعر مع الخجل بإحساس آخر مريح.. انه استطاع أخيرًا أن يفعل شيئًا.. ولو كان هذا الشىء هو أن يضع شريطه من حرير حول عنق كلب مدلل لامرأة يحبها.

وكان يشعر بالراحة.. لأنه كان يتخيلها فى تلك اللحظة وهى تداعب كلبها وتحتضنه كما هى عادتها.. وتتحسس الشريطة الحمراء حول عنقه.. وتتساءل.. وربما تبتسم أيضًا.. وتسرح.. وتنشغل.. كما يسرح هو أيضًا وينشغل.

وكان هذا الإحساس يريحه ويرضيه..

أخيرًا.. أصبح هناك شيء مشترك يفكران فيه..

ونام نومًا عميقًا للمرة الأولى.. منذ جاء إلى الفندق. وفى الصباح.. حينما تيقظ وفتح النافذة المطلة على البحر كانت تنتظره مفاجأة.. كانت مدام س تتبختر على الشاطئ وحول شعرها الشريطة الحمراء معقودة فيونكة..

هل يمكن أن يكون هذا حقيقيًا؟.

كان قلب محجوب يدق بشدة.. وكانت عيناه تدمعان من السرور والانفعال.. وجسمه العليل يرتجف بخدر لذيذ منوم وعقله يرقص بأفكار طفله..

وأغلق الشباك. وأخذ يدور فى الغرفة.. ويجلس على الفراش.. ويجذب الأغطية ثم يترك السرير إلى البلكونة.. ثم يعود إلى الغرفة ويقف أمام المرآة يمشط شعره.

كان فرحًا..

وكان هذا الحادث الصغير أول شعاع يدخل قلبه الوحيد العليل.

وحينما نزل الأستاذ محجوب إلى الشاطئ فى ذلك الصباح كان أكثر ثقة فى نفسه من أى يوم آخر.. وكان يتمشى فى بدلته الكاملة وقميصه المقفول ويتلفت حوله فى اعتداد..

وكانت هناك مدام س.. والشريطة معقودة على رأسها وكلبها الأبيض يتراقص عند قدميها.. وكانت تمسك بمضرب تنس.. وتلعب مع طفلها.. والطفل يجرى خلف الكرة ويضحك..

وطارت الكرة بعيدًا.. فأمسك بها محجوب وناولها للطفل فى خجل وأخذ يلاعبه ويقبله.. ونظر إليها فابتسمت.. وأومأت له برأسها.. وجاءت تتمخطر.. وكل تقاطيع جسمها تبتسم.. وشكرته..

– على إيه.

– الولد أصله متعب..

– أبدًا ده لطيف.. ياريتنى أقعد ألاعبه طول العمر..

– الظاهر أنك ما تعرفش الأولاد.. دول يجننوا.. إنت لازم ما خلفتش..

– أبدًا.. عمرى..

– عشان كده..

وتبادلا نظرة خاطفة.. قطعها هو بسرعة قائلاً:

– الجو هنا جميل.. أنا رحت اسكندرية وبورسعيد ورأس البر

ما شفتش البحر ده أبدًا.

– ومع كده مش بشوفك تنزل البحر.

وسكت محرجًا.. لا يعرف ماذا يقول.. ثم قال وهو يفرك يديه.

– أبدًا.. تقدرى تقولى عادة..

ثم قال مغيرًا موضوع الحديث.

– أجمل حاجة فى مرسى مطروح أنها صغيرة جدًا.. والمصيفين كلهم يعرفوا بعض.. كأنهم عيلة واحدة.

– صحيح..

وتعلق طفلها بذراعها فالتقطته بيديها وراحت ترفعه فى الهواء ثم تنزل به على الأرض فى حركات سريعة مرحة..

وقال محجوب فى إعجاب..

– الظاهر إنك بتحبى الرياضة.

– أوى..

وجرى الطفل والتقط الكرة وقذفها فى الهواء.. فالتقطتها.. وأمسكت بالمضرب.. ولوحت بالمضرب الثانى لمحجوب وهى تدعوه إلى اللعب فى ابتسامة سبور لم يعرف كيف يردها.. وما لبث أن وجد نفسه يتناول المضرب من يدها.. ثم يبدأ فى اللعب هكذا ببساطة..

وبعد دقائق كان يجرى فى كل اتجاه ببدلته الكاملة وقميصه

المقفول ليلحق بالكرة..

واستخف به الحماس فنسى كل شىء وتحول إلى طفل يجرى هنا وهناك.. ويلعب.. ويصيح.. ويهلل..

وتصبب عرقه.. فأمسك بزراير قميصه.. ودون أن يدرى بدأ يفكها..

وفى حرارة اللعب نسى القيود التى أخذ بها نفسه سنوات طويلة.. وبدأ يقفز وينط.. ويبرطع.. ويجرى.. ويطير وراء الكرة فى كل اتجاه..

لم يتذكر حقيقته المؤلمة.. إلا.. فجأة.. حينما حاول أن يلتقط أنفاسه فلم يستطع.. وتهاوى جالسًا على الرمل فى مكانه.. وفمه مفتوح..

وحينما أسرعت إليه صاحبته كان يتكلم بصعوبة.. وفى غمرة عرقه من أن يتحول شعورها إلى إشفاق جمع أنقاض نفسه واتجه إلى الفندق.. وهو يعتذر.. بأنه نسى شيئًا فى الغرفة.. ولا بد له أن يعود.. لأن باب الغرفة مفتوح.. وباب الدولاب مفتوح.. و.. وكلام كثير لا معنى له.. وتركها حائرة.. وعاد إلى غرفته.. وارتمى على فراشه.. وهو يلهث.. ويكاد يبصق قلبه من بين شفتيه من شدة الخفقان..

وظل ساعات طويلة لا يدرى بروحه..

وحينما تيقظ فى صباح اليوم التالى كانت قدماه وارمتين. وكان

الورم المائى يسرح إلى أعلى ساقيه.. ببطء..

وكان معنى هذا أنه يعانى نوبة قلبية حادة.

ولم يكن من الصعب عليه أن يفهم ما حدث.. وهو المريض لمدة أربع عشرة سنة بالقلب..

وكان اللهاث يلازمه.. وكأنه يتنفس فى عالم بلا هواء.. وكان ذهنه قد توقف تمامًا.. وخياله قد توقف عند اللحظات الأخيرة التى كان يعيشها على الشاطئ.. وكانت ابتسامة مدام س المرحة وجسمها الذى يتلوى كحورية الماء وضحكاتها الرنانة.. ما زالت تدوى فى أذنيه..

كان ما يزال يقفز وينط.. هناك.. على الشريط الرفيع على الساحل.. ورشاش الماء المالح يبلل سرواله.. ورائحة الأصداف تملأ أنفه.

كان ما يزال هناك.. فى تلك اللحظة التى أصبحت كل عمره..

ولأول مرة تذكر أنه لا يعرف اسمها.. تلك التى أحبها لدرجة الموت..

لقد كانت مجرد مدام س.. أى امرأة..

ولم يكن فى حاجة لأن يبحث لها عن اسم.. إن اسمها هو كل حياته.. وكل حماسه وكل شوقه للحب والمغامرة والحياة..

إنه لم يكن سوى تلك اللحظة فقط..

وهو يبكى..

الأستاذ محجوب الوقور يبكى.. ويبكى بحرقة.. ويشعر لأول مرة أنه مريض جدًا.. وحيد جدًا..

وهو يود لو تسلق أسوار وحدته.. ليصل إلى الله.. ويناديه.. ويسأله.. ما ذنبه.. ماذا فعل..ليتعذب كل هذا العذاب.. وهو يكف عن البكاء..

لا فائدة..

والشباك ما زال مفتوحًا على البحر..

ومدام س.. مازالت هناك.. على الشاطئ.. واقفة تلعب بالكرة.. وتلوح له بيدها.. وهو يجاوبها بإشارة من يده.. معناها.. أنه مسافر.. جاءه تلغراف.. لا بد أن يعود حالاً..

وهو يجذب ستارة النافذة.. فى ضعف.. فتهبط فى بطء لتنسدل على الابتسامة الوحيدة التى ابتسمها فى حياته.

وتعود يده لتتحسس الأدوية المرصوصة بجواره باحثة عن حبوب الديجتالين.. المقوية للقلب..

ويغطى عينيه.. حتى لا يرى ضوء النهار..

دواء منوم

كنت أعالج اليقظة فى ذلك الصباح.. وكان جسمى هامدًا ولا شيء فى ذهنى سوى أن اليوم إجازة.. ويجب أن أنام.. أن أموت.. أتلاشى تمامًا إلى صبح اليوم التالى.. أو إلى الأبد.. فلا أحد له عندى حاجة.

كنت أشعر بضيق وسخط وتبرم بكل شيء وكنت أقول لنفسى.. ولماذا أعيش.. ولماذا خلقت.. ولماذا استمر فى حياة لا أفهم لها أولاً من آخر.. ثم تكون نهايتى أن أموت كالكلب دون أن يشفع لى طول الصبر والانتظار.

ولماذا الصبر ولماذا الانتظار.. إذا كانا بلا فائدة.. وبلا جدوى سوى أن تطول المأساة إلى أرذل العمر.. وتتكرر السخافات يومًا بعد يوم.. وسنة بعد سنة.

وماذا يغرينى بالانتظار؟ الثراء؟ النجاح؟ الشهرة؟ وهى

أشياء ما يلبث أن يهال عليها التراب هى وصاحبها فلا يبقى منها إلا ذكريات باهتة فى صدور ما تلبث هى الأخرى أن تموت وتفنى ويأكلها الدود.

أى لذة فى حياتى.

الحب؟!

أن يكون لى ابن فى يوم من الأيام يشتمنى وكأنه لا يعرفنى؟

كلام فارغ.. أوهام.. فى أوهام.

أنا لا أريد أن أصبر وأثابر لأصبح مديرا فى الشركة التى أعمل بها اتقاضى ضعف المرتب.. فأين هو المدير السابق. الله يرحمه. أنه فى قرافة الغفير يرقد جنبًا إلى جنب بجوار أحقر شحاذ.

ولا أريد أن أتزوج لأنجب ولدًا ينتظر موتى ليرثنى.

كلام فارغ.

أنا لا أريد شيئًا بالمرة.

أريد أن أنام.. أغمض عينى فلا أتيقظ.

كانت هذه الأفكار الانتحارية تراودنى.. وكنت أفكر فى أقصر طريق إلى الآخرة.. وأعدد أمام خيالى الوسائل المختلفة التى تنقلنى فى يسر وهدوء إلى عالم الظلام والصمت والعدم.

أنبوبة الاسبرين.. مفعولها غير أكيد.. وهى فى العادة لا تقتل

وإنما تبتلى القلب بالضعف والخفقان طول العمر.

سائل بوليس النجدة.. عظيم.. لكن آلام المغص الفظيع التى تجتاح الأحشاء بعد تجرعه.. توقف القلب من الهلع.

غاز البوتاجاز.. والموت فى الحمام فى البانيو.. فكرة رائعة ورومانتيكية أيضًا.. وقد انتحر ستيفان زفايج هو وزوجته بهذه الطريقة وماتا معًا.. لا مانع من تجربة هذه الطريقة.

سيانور البوتاسيوم.. دواء صاعق.. يقتل فى ثانية.. ويجعل الوجه ورديًا مشرقًا ساعة الموت.. وقد انتحر هملر رئيس الجستابو بهذه الطريقة ومات فى لحظة بين حراسه وفشلت كل مجهودات الطب فى إنقاذه.

ولكن كيف الحصول على سيانور البوتاسيوم.

زجاجة الأقراص المنومة.. والموت فى فندق مهجور.. فكرة وجيهة.. الموت يسعى فيها إلى الجسد فى أثناء النوم.. ويتسلل إلى الأجفان كالأحلام.. يا سلام.

القفز من على كوبرى عباس فى النيل.. طريقة بلدى.. وهى قد تحرك نخوة أحد الفدائيين فيقفز خلفى.. وتنتهى المغامرة بنيشان شجاعة للبطل.. وس - وج.. وليه تعمل فى نفسك كده ومحضر بوليس من عدة صفحات بالحادث.. ونهاية تكسف..

طلقة بندقية فى الدماغ.. وإشاعة بالقتل الخطأ فى أثناء تنظيف ماسورة البندقية تمامًا كما حدث مع المرحوم أرنست همنجواى.. فكرة بديعة.. ومضمونة مائة فى المائة.

ولكن أين البندقية.

القفز من الدور السابع إلى الأرض.. فكرة غاية من السخافة.. وقد تكون نتيجتها كسرًا فى الضلوع وشرخًا فى الجمجمة وقضاء سنة فى الجبس وقضاء بقية العمر بساق صناعية ودبابيس من المعدن فى عظام الذراعين والرجلين أعوذ بالله..

كنت أفكر فى عشرات من هذه الطرق وغيرها، وأنا بين النوم واليقظة وقد تعاطيت ثلاثة أقراص منومة لأموت نصف موتة.. وأجرب ذلك الإغماء اللذيذ الذى يتبلد فيه العقل ويكسل المخ وتركد المشاعر وتموت الحواس ويتحول الإنسان إلى حمار غبى.. لا يعرف ماذا يريد من الدنيا.

وكنت استمتع بهذا الغباء اللذيذ.. وأنظر بنصف عين إلى نور النهار ثم أعود فأغلق عينى فى كسل وأنام.. وأشعر بالراحة لأنى استطيع أن أنام وأنام.. وأنسى أن الدنيا نهار.. وأن الشمس طالعة.. وأدفن رأسى تحت الوسائد.. لا شىء يهمنى أبدًا.

ولكن الظاهر أنى لم أكن وحدى.

كان الباب يطرق بشدة.. والجرس يدق.. والمنبه يلعلع إلى جوار أذنى.. وأنا وجهى إلى الحائط.

وكانت فى الغرفة أقدام كثيرة.. وأصوات من كل نوع..

أسمعها.. وأيد تزغزغنى فى باطن قدمى.

وبدا يتضح لى وأنا بين النوم واليقظة أن الغرفة مسرح لجو جديد غير مألوف.

وسمعت أصواتًا مختلطة تصيح.. وخروفًا يمأمأ.

ما تقوم يا أخى إنت واكل سطل ؟.. هاتولو الخروف يمأمأ له.. أنت حاتصحى والا نسيب عليك الحنفية.. قوم سلم على خالك حسن اللى جه من الصعيد.. قوم بلاش تلامه.

وفتحت عينى لأجد العائلة كلها مجتمعة.

أكثر من عشرين نفرًا فى الغرفة.. والبيت مزدحم مثل سوق التلات.. والخروف مربوط فى الحوش.. وإلى جواره فرد رز.. والخالات والعمات يجلسن وحولهن قصارى الأطفال.. والرجال يدخنون فى الأركان.. ويخبط الواحد منهم على كتف الآخر بشدة.. ويقول فى حرارة:

– والله سلامات.. فينك من زمان.. بعودة الأيام.. كل سنة وأنت طيب يا خال.

وتذكرت أن اليوم هو الوقفة.. وأن العائلة تتقاطر علينا فى هذا اليوم من الشرق والغرب.

وتلفت حولى فى فضول وبلادة.. ومسحت عينى من أثر النوم.. كان هناك خالى حسن وزكائبه المليئة بالتمر، وخالة فاطمة وفطيرها المشلتت.. وعم حنفى وحلاوته السمسمية.. وفى الركن كان يجلس جدى العجوز وقد تكوم على نفسه كالجميزة العتيقة..

كان هذا هو العيد الثمانين فى حياة جدى.

وشعرت بالانتعاش لرؤية الجد العتيد بوجهه الطيب البسيط ونظراته الصافية.. وقمت من فراشى لاحتضنه وأصرخ فى أذنه:

كل سنة وأنت طيب يا جد.

فابتسم ابتسامة واسعة.. وطبطب على كتفى.. وأعطانى حفانًا من السودانى.. كما تعود أن يفعل معى منذ أن كنت طفلًا.

وجلست إلى جواره وادعًا كأنى أتظلل تحت سنديانة وتركت باقى الشلة.

وكانت دماغى مازالت تطن من أثر النوم الثقيل.. وكان الكلام من حولى يبدو كأجزاء رواية طويلة أشاهدها وأنا أدخن فى لوج بأعلى التياترو.

وكان صوت الجد يقطع هذا الشريط من الخيالات بنبراته الخشنة الجليلة فأتيقظ فجأة كأنه يشدنى من نعاسى بقبضة قوية من يديه.

وكنت أجد لذة فى تتبع أخبار البلد كما يرويها الجد فى هدوء.

– الباقية فى حياتك.. عوضين مات.. وجع جتيل برصاص عيلة البهتيمى.. وكله من تحت راس الساجية.. عشر سنين وكل

يوم يتعاركوا على الساجية.. الساجية.. تغور الساجية واللى شفناه من وراها.. الدم اللى ساح منها أكثر من الميه التى بتطلعها.. نفوس طماعة أعوذ بالله.. الأرض ربنا وسعها للكل.. ومطرح ما تدج طرنبة تطلع ميه.. وكل يوم المعركة تحكم على الساجية.. الساجية.. والله البهيم اللى بيجر الساجية أعجل من المواشى اللى بيتعاركوا عليها.. على الأقل ما بيجتلش البهيم اللى زيه عشان عود برسيم. تصدق بالله يا ولدى.. لو احكيلك عملنا إيه فى الجطن السنة دى عشان ننضفه من الدودة.. تستعجب.. الرش كل يوم والتوكسافين والنجاوة ورجة ورجة. ودوريات معاون الزراعة.. وبعد ده كله. أهى الدودة كلت نص المحصول. تجول إيه.. أمر ربنا كده.. الإنسان له إيه فى الدنيا غير الامتثال لأمر الله.. احنا لنا إيه فى الدنيا غير لجمتنا وهدمتنا والشبر اللى ننام عليه.. ده الملك لله. الملك للمالك. والبنى آدم منا على سفر.. النهارده بيغنى زى طير الشجر.. بكره لا حس ولا خبر.. ولا يفضل منه إلا كلمته الطيبة.. إيه لازمة الفعل الردى.. والكلمة السو.. اللهم اختم حياتنا بأحسن الخواتيم.

ورفع يديه فى ضراعة:

اللهم رضاك.

وشعر بعد هذا الابتهال بالرضا عن نفسه. فأشرق وجهه بالسعادة.. وتناول قطعة من العجوة من جيب جلبابه جعل يلوكها

بين أسنانه ويتمتم – ثم تذكر شيئًا فأخرج من جيبه مظروفًا.. سلمه لى.

افتح لى الجواب ده واستجراه يا بنى شوف فيه إيه..

وفتحت المظروف.. وبعد النظر فى السطور الأولى بعينى أشفقت من قراءته.

كان الخولى يقول فيه إن الذرة غرقت.. أغرقتها مياه النيل العالية.

ومعنى هذا أن محصول عشرة فدادين قد ابتلعته مياه النيل.

وكان الجد يحملق فى وجهى منتظرًا.. أن أقرأ.

ولم أجد مفرًا من أن أقرأ الأخبار السيئة.. وتوقعت منه أن يثور.. أو يشتم.. أو يسخط.. لكنه سكت. وطال سكوته..ثم قال وهو يفرك يديه:

– الحمد لله خدت الشر وراحت.. مفيش حد بياخد من الدنيا إلا نصيبه.. ورب ضارة نافعة.. حد عارف لو الدرة دى طالت وطالت كان حايحصل فيها إيه.. مش جايز كان حايتربص فيها شجى.. ويجتل فيها خال أو عم أو أخ شجيج من إخواتك.

الحمد لله.. وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم.. سبحان من عنده الأسباب كلها.. لا يسأل عما يفعل.

وكان وجهه هادئًا.. وكان ما يزال يلوك العجوة فى فمه..

وما لبث أن قام ليصلى الضحى.. وكأن لا شىء حدث.. وعندما انتهى من صلاته ومن دعائه للأحياء والأموات.. عاد ليركن ظهره إلى الحائط.. وكنت أجلس إلى جواره أتأمل فى وجهه.. أحاول أن أجد أثرًا للسخط والتذمر والنقمة.. ولكنى لم أجد شيئًا.. لم أجد حتى تجعيدة واحدة من تجاعيد الشيخوخة.. كان وجهه كوجوه الأطفال.

ورحت أسأله فى فضول:

– قوللى يا جد.. إلا مفيش حاجة فى الدنيا ضايقتك.. ما جاش عليك يوم اتمنيت الموت.

ونظر إلىّ نظرة واحد لا يفهم لغتى.

وقلت أحاول أن أشرح:

– عمرك يعنى ما خدتش منوم عشان تنام.

ولم يجب..

وكان فى الواقع قد بدأ ينام.. وعلى وجهه أثر ابتسامة من غرابة كلامى.. وعلى جبينه الأبيض سكينة لا حد لها.. وكان يسند رأسه إلى الكومودينو.. حيث تتراص عشرات الزجاجات المنومة التى أتعاطى أقراصها كل ليلة.

ساندوتش مخ

شكرًا لله على أن لى أهلًا، أسهر طول الليل أفكر فيهم. وبيتًا.. وعنوانًا.. وبطاقة شخصية.. وأن قلم الحوادث فى أى مكان يستطيع أن يتعرف على شخصيتى وعنوانى.

أقول هذا بمناسبة الكلام عن حكاية جاد الرب عوضين الشقى الهارب من اللومان.. الذى عاش حياته بلا عنوان يتنقل بين كهوف المقطم وتلال زينهم ومقابر الإمام.. ومعه بندقية تومى ولفافة بها بصل وخبز جاف ومحفظة عامرة بمئات الجنيهات.. كلها غير قابلة للصرف.. فلا بد لجاد الرب إذا أراد أن يصرف ما معه أن يذهب بشخصه إلى الناس.. والناس سوف يبلغون عنه لخوفهم أو لطمعهم فى مكافأة وسوف ينتهى جاد الرب إلى اللومان من جديد، لا مفر إذن من الاختفاء، والحياة على التلصص والنهب والقتل وتكديس النقود بلا جدوى.

ولو أن البوليس عثر على جاد الرب وأراده قتيلاً برصاصة لظهر اسم جاد الرب بالعناوين الحمراء على عشرات الأعمدة فى كل الصحف. و.. لظهرت جثته فى التليفزيون وقصته فى السينما.. لأصبح رواية تروى.. كما حدث للسفاح المعروف.

ولكن جاد الرب كان أذكى من السفاح.. وأسرع منه فى التقاط بندقيته التومى وقتل أى شبح يقترب منه.. وأقدر منه على تفادى خطوات رجال الشرطة.

وبهذا نجح فى الانتقال فى خفة الفهد من مكان إلى مكان دون أن يلحظه أحد.. وكأن على رأسه طاقية الإخفاء.. واستطاع أن يعيش حياته كلها.. نكرة.. بلا عنوان.. بلا أهل..بلا أصدقاء.

كانت صديقته الوحيدة هى البندقية التومى.. وكان رفيق أيامه ولياليه ذراعه اليمنى.. ولا شىء غير هذا.

ولكن الموت قضاء مكتوب على كل العباد بلا تفرقة.. حتى الذين فى ذكاء جاد الرب يموتون.. بدون البوليس.. وبدون أن يبلغ عنهم أحد.. وبدون أن يراهم أحد.. بضغط الدم.. أو الشيخوخة.. أو بدون أى سبب معروف.

كل واحد لا بد أن يموت..

ولهذا كان لا بد لجاد الرب أن يموت حينما وافاه أجله.

وقد مات جاد الرب بالسكتة القلبية بعد أن أكل خمسة أرغفة وفحل بصل وعشر خرطات من الجبن القريش.

والذين عثروا عليه فى الصباح على ساحل روض الفرج لم يعرفوه.. ونقطة إسعاف روض الفرج لم تتعرف عليه ولم تجد معه أوراقًا أو بطاقة شخصية تدل على حقيقته.

وكعادته كان يخفى البندقية التومى والمحفظة التى بها مئات الجنيهات فى مكان لا يعرفه أحد سواه.. وهكذا لم يعثر معه على أى شىء يدل على صناعته أو بلده أو شخصيته.

وضابط نقطة روض الفرج الذى عين حديثًا لم يستطع أن يتعرف عليه وهكذا ظل يتنقل من يد إلى يد حتى وصل إلى مشرحة القصر العينى، وظل فى مشرحة القصر العينى محفوظًا فى الثلاجة أيامًا.

ولما لم يتقدم أحد للتعرف عليه أو استلامه.. قيد فى دفتر المشرحة على أنه ميت بلا أهل.

وهكذا انتقل من مشرحة المستشفى إلى مشرحة كلية الطب حين حقن بمادة حمراء ووضع فى حوض ملىء بالفورمالين وجهز كعشرات أمثاله ليدرس عليه طلبة الطب مادة التشريح.

وحول جثة جاد الرب تجمع اثنان وثلاثون طالبًا يدرسون فى السنة الأولى بالمشرحة.. أربعة حول كل جزء من الجثة..

وفاز جاد الرب بمعاملة مماثلة لزملائه العشرين الممددين فى صفين إلى جواره.. ولم يلحظ أحد أنه المجرم العتيد الهارب من اللومان.

وقام الطلبة الاثنان والثلاثون بسلخ جلده بروح علمية صافية وبلا تحامل.

وبعد أن تعقبوا العروق الكثيرة المنتشرة تحت جلده.. شقوا لحمه بحثًا عن عضلاته.

وكانت عضلاته الغليظة مدار حديث.. ومحل ملاحظة بين الأستاذ المشرف وطلبته الاثنين والثلاثين.. وقال الأستاذ فى دهشة.. باين عليه صعيدى..

بالطبع احتج الطلبة الصعايدة.

ولكن المسألة لم تزد على ملاحظة عاد بعدها الطلبة الاثنان والثلاثون ينكبون على المائدة الرخامية.. ويقطعون فى لحم جاد الرب..

وما كادت تمضى أيام معدودة حتى تفرق جاد الرب على عدة موائد.. وكنت ترى اثنين فى ركن يتداولان على ساقه. واثنين فى ركن آخر ينقعان ذراعه فى حوض.. واثنين فى ركن ثالث يتناقشان حول كبده.. وأربعة فى الوسط يتقاسمون كليته.. وأربعة آخرين يقطعون عظامه بمنشار.

وكان من عادة طالب وقح أن يطفئ سيجارته فى فمه. فى فم جاد الرب.. وكأنه طفاية سجاير.. بالطبع لم يكن ذلك الطالب يعلم حقيقة ذلك الفم.. ولا شخصية صاحبه ولم يكن يدرك أنه لو كان فعل هذا فى حياة الرجل لأصبح هو وعائلته طعامًا للرصاص

فى غمضة عين.. وكان أيضًا يجهل قوانين المشرحة وأخلاقها التى تقضى بأن يقوم الطالب بتشريح جثة الميت باحترام بغية العلم فقط لا بغية التريقة.

ولكن أمر هذا الطالب لا يهمنا.

وما يهمنا هو أمر جاد الرب.. وفى الحقيقة لم يكن جاد الرب يهتم كثيرًا.. والحال كان يستوى عنده سواء أطفأ الطالب سيجارته فى فمه أو فى أى طفاية.. فهو قد ترك نفسه تمامًا لتتوزعه عشرات الموائد.. وليستقر كل عضو من أعضائه فى حوض.. أو طبق.. أو برطمان.. ولو وضع على خازوق.. لما أعطى بالا للحكاية.

حتى بعد شهور.. حينما تحول جاد الرب إلى فتافيت.. وسلخ.. وقصاصات.. ثم احتواه برميل القمامة الذى يخرج به عم فهمى كل يوم من المشرحة ليدفنه فى مكان ما.. لم يعبأ جاد الرب كثيرًا بالمكان الذى تبعثرت فيه نفاياته.

ولكن الذى أثار كلامًا كثيرًا.. وفتح تحقيقًا.. كان هو الأستاذ المشرف حينما أبلغه الطلبة أنهم لم يعثروا على المخ بالجثة.

وكالعادة اتجه شك الأستاذ إلى عم فهمى حارس الجثث.. فهو وحده الذى يتسلم الجثث ويوقع باستلامها.. وهو الذى يجهزها.. وهو الذى يضعها فى المخزن برقم وأرشيف.

- فين راح المخ يا عم فهمى.. الطلبة ما لاقوش المخ فى الجثة.

- والله يا بيه أنا استلمتها كده.. لازم هو مولود كده.. من غير مخ.

- ازاى بقى وحايعيش إزاى العمر ده كله من غير مخ.. أنت حاتستغفلنى يا عم فهمى.. دنا دكتور يا أخى.

- والله أنا ماعرفش.. أنا استلمته كده.. وأنا حاخذ المخ أعمل به أيه.

وكالعادة لم يستطع الأستاذ أن يخرج بحق أو باطل من عم فهمى.

وإذا كان لابد للقارئ أن يعرف ماذا حدث لما تبقى من جاد.. فإنه ليس سرًّا بين الطلبة أن عم فهمى أحيانًا يبيع الأمخاخ لقاء عشرين قرشًا للمخ الواحد.. وخاصة لمن يطمئن لهم من الطلبة وللراسبين الذين يعيدون السنة.. ليذاكروا عليه فى منازلهم.. وهى أمخاخ يحصل عليها سرقة بالطبع. وهكذا وصل مخ جاد الرب المجرم الذكى الفذ الذكاء الذى استطاع أن يدوخ البوليس إلى يدى الطالبين الشقيقين أحمد ومحمد.. واستقر أمامهما مشطورًا إلى نصفين.. ومضت أناملهما تعبث فى تلافيفه.

واستغرقا فى الدرس والقراءة حتى منتصف الليل.. حين تمطأ أحمد فى تعب وقال وهو يلتمس لحظة ترويح:

- يا سلام لو الواحد يعمل ساندويتش من المخ العجالى ده.

- أعوذ بالله.. أظن لو كان الواحد بيموت م الجوع مش حاياكل من الساندويتش المهبب ده أبدًا.

وضحك أحمد ضحكة شاحبة.. وأمسك بالمخ متسائلاً:

- يا ترى بيجيبوا الميتين دول كلهم منين.. معقول أهالى الناس دول يسيبوهم يتبهدلوا كده.

- ما هم مالهمش أهالى.. كل الميتين اللى فى مشرحة قصر العينى مجهولين مالهومش أهالى.

- غريبة..

وأخذ يتمطأ من جديد.. وخطر له أن يدس يده فى جيبه بحثًا عن بطاقته ليتأكد من وجود اسمه وعنوانه فى البطاقة.. ولكنه شعر بسخافة هذا الخاطر..

ومضى يفرك عينيه ويحاول أن يحصر ذهنه فى الكتاب المفتوح.. ويرشف الشاى الساخن فى رشفات مسموعة ليبعد شبح النعاس.. وأمسك بالمشرط ليقطع فى المخ عدة قطاعات.. طولية.. وعرضية.

المظاهر

أقدم لكم نفسى.. أنا فتاة فى العشرين.. كما أرى نفسى الآن فى المرآة.. طويلة عريضة.. عظام وجهى بارزة ملامحى جادة. كفاى كبيرتان.. لست دميمة.. ولست جميلة. وإنما أوصف دائمًا بشىء آخر غير الجمال وغير الدمامة.. الناس يصفوننى بأنى خشنة.. مشيتى عسكرية.. كلامى جد.. لا أعرف المداعبة ولا المهازحة. جافة. والذين لا يخجلون.. يقولون لى فى وجهى.. أنت راجل.. وهى طعنة أحاول أن أخفيها بابتسامة مغتصبة.. وبينى وبين المرآة.. أحاول أن أمحو هذه السمعة السيئة بقليل من البودرة.. والمطريات.. والمانيكير. وفورمة الشعر. والفستان.

وبذوق أنثوى حقيقى أحاول أن أبدو جميلة.

المهم عندى دائمًا كان رأيه هو.. أحمد.

وهناك كلام لا يقوله الإنسان.. ورغبات لا يبديها.. ولكنها تكون هى كل حياته.

وهذا هو حقيقة الوضع بينى وبين أحمد.. كنت أتحدث معه فى كل شىء إلا الشىء الذى أريد أن أحادثه فيه.. وكنت أقول كل ما فى المعاجم العربية من كلمات إلا الكلمة التى أسهر طول الليل أفكر فيها.

كنت أحادثه فى السياسة.. فى نظم التعليم.. وأنا بحكم كونى مدرسة أهتم اهتمامًا خاصًا بمشاكل التعليم.. اختلاط الأولاد والبنات.. ماذا نفعل للتلاميذ فى الإجازة الصيفية هل نتركهم لينفقوها حسب مزاجهم.. والتلامذة النابغون.. ماذا نفعل لتشجيعهم.. والرحلات.. والرقص.. والموسيقى.. والتمثيل.

كنا نتناقش فى الفن.. فى الكتب التى نقرؤها.. وكنا نختلف بشدة أحيانًا.. ونتعارك.. ونتصالح.. ولكن أبدًا.. لم نتكلم فى ذلك الشىء.. ذلك الشىء الذى كان يخرق دماغى من كثرة ما كان يطن فيها ٢٤ ساعة كل يوم.

كنت أخجل حتى من أن أسأله رأيه فى زينتى أو فستانى أو تسريحة شعرى.. لا عن إحساسى بتفاهة هذه الأشياء.. فهى أشياء كنت أضيع فيها ساعات.. وأضيع فى التفكير فيها ليالى أخرى إلى جوار هذه الساعات.. لم تكن التفاهة إذن بل بالعكس.. الأهمية.. فرط الأهمية هو الذى كان يجعلنى أخاف أن أسأله.. وكأن مصيرى كله معلق بهذه الأشياء الصغيرة.

واستمرت علاقتنا على هذه الحال سنوات.. مناقشات..

ومقالات وكتب.. وأحاديث طويلة جادة.. نتدارس فيها كل شيء.

وأشعر بالخجل لو حاولت أن أصف أشواقى وأنا أرتدى ثيابى فى الصباح استعدادًا لهذه الأحاديث التى تبدو لكم جافة غير ذات موضوع.

وأشعر بالدماء حارة فى وجنتى وأنا أتذكر لحظة رؤيته فى الصباح فى غرفة المدرسين بالمدرسة التى نعمل بها معًا.. وأنا ألمحه.. وأدعى أنى لا أراه.. وهو يقوم من مكانه ليقطع طريقى فى بساطة ويلقى إلىّ بتحية الصباح.. ويضع يده فى يدى.. وأنا أحاول أن أخفى الرجفة التى تشملنى من فرعى كله إلى أخمص قدمى.. وتلك اللذة التى تجعلنى أخطف يدى من يده بسرعة.

وتلك الومضة القصيرة جدًّا من عمر الزمن.. اللحظة.. نصف اللحظة.. التى أشعر فيها.. واعذرونى فى هذا الوصف المكشوف.. إنى أتجرد من ثيابى وأغيب فى نشوة مخجلة.. كل هذا فى لحظة.. نصف لحظة.. فى مصافحة لا أكثر.. ليس فيها حتى ضغط اليد الحانية.

كل هذا.. كان يدور فى إطار خارجى من الروتين والعادية.. وفى مقابلات مكتبية.

لم أحاول أن ألتقى به خارج هذه الأوقات.

وفى الإجازة الصيفية كنا نلتقى فى جمعيات النشاط التى ننظمها.

إلى هذا الحد تكذب المظاهر.. ويخفى الواقع البارد مشاعر ملتهبة تضن بها المخادع على الكثيرين.

إن كلمة مغامرة.. كلمة خطأ.

إن ما يحدث أحيانًا داخل الشعور لهو أفدح من كل الكوارث العاطفية.. دون ما مغامرة.. ودون ما ميعاد.

وأقول لكم إنى لم أكن أطرد فكرة الميعاد تعففًا.. وإنما خوفًا.. وفزعًا.

كنت خائفة من نفسى.. من لسانى الذى سوف يتلعثم ويتجمد فى فمى ولا يجد كلمة يقولها إذا وجد نفسه على شاطئ النيل.. أو فى كازينو.. أو فى سينما.

كنت أشعر فى المدرسة أن الموضوعات الجافة والموضوعات السياسية.. أشبه بالملاجئ ألجأ إليها وأحتمى بها وأخفى بها ضعفى.. وغريزتى.. وحبى الأحمق.. وأتنكر فى ثوب مشروع.. وأقف بالباب لأراه كل يوم.. وأنظر فى عينيه.. وأضع يدى فى يده.. وأحلم كما أشاء.

وفى ذات صيف فى يوم لا أنساه.. وفى ساعة غروب رمادية.. والأولاد ينصرفون واحدًا فى إثر الآخر بعد ساعة من الضجيج والعبث.. وأنا واقفة بالباب وحدى.. متعبة أقبل وهو يبتسم ابتسامته الواسعة المرحة.. ووقف بجوارى.. ورأيته يتفحص جسدى.. ويتلكأ بعينيه النافذتين ويتنقل من عنقى إلى كتفى إلى

صدرى إلى خصرى إلى ساقى.. ثم يعود فيتلكأ من جديد حول صدرى النافر.. ويتجول بعينيه حول استدارته.

وشعرت بشىء كالإغماء.

وفتحت عينى بصعوبة.. وكان ما يزال يبتسم. ويقول:

– تعرفى إن جسمك ده عجيب!

ومسحت العرق البارد من جبينى..

– ده جسم عجيب.

وتمالكت نفسى بشدة.

– إنتى جسمك جسم رياضى درجة أولى. انتى لازم تلعبى سويدى. وتجديف.. ومصارعة.. إنتى عندك مواهب خطيرة.. جمعية موسيقى إيه ياشيخة إلى واخداها.. إنتى مكانك فى الاستاد الرياضى.. رئيسة فريق الهوكى.. ولو فيه ملاكمة بين الستات.. إنتى تبقى بطلتها.. ده جسمك فيه خشونة رياضية عجيبة.

وشعرت بساقى تتخاذلان.. ولم أجد كلمة أقولها.. وابتسمت فى ضعف.

وفى البيت.. دفنت رأسى فى الوسائد.. وبكيت.. بكيت بشدة.. كما لم أبك مرة فى حياتى.. ونزلت الدموع كالسيل لتمسح كل أثر للزينة من وجهى.

وكنت أعتصر وجهى بين يدى لأشعر به عريضًا مربعًا..

ولأشعر يكفى الكبيرتين.

أهما خشنتان.. هاتان اليدان.

أهو عريض ذلك الصدر كصدر رجل.

ولكن قلبى فى داخل ذلك الصدر يذوب رقة.. وأنوثة.. وعذوبة.. حتى لأرتجف بالنشوة من لمسة حبيبى.

ونفسى مفعمة بالجمال والحنان والحب.

وروحى ناعمة بلّورية.. وعواطفى تتدفق كأنهار من العطر.

أهما خشنتان هاتان اليدان حقًّا.. أهما خشنتان.

لشد ما تكذب المظاهر يا ربى.. لشد ما تكذب المظاهر.

مسألة كرامة

الوقت أمسية صيف.. والجو جميل يغرى بالسهر والشقاوة.. والشلة التى تجلس على مقهى على أطراف البلد تتبادل نظرات الملل.

لقد فرغوا من الثرثرة.. والنكات.. ولعب الكوتشينة.. والطاولة.. والشيشة.. والتريقة على عابرات الطريق.. ولم يعد هناك كلام جديد يقال.. والجلسة بدأ تثقل.

ومع هذا فلا أحد كان يفكر فى العودة إلى البيت فى هذه الساعة.. ولا أحد كان يفكر فى أن يقوم ليسجن نفسه بين جدران أربعة فى الوقت الذى تهب فيه النسمات رخية جميلة تدغدغ الوجوه التى يسيل عليها العرق.

إن كل شيء يغرى بالسهر.. وبالتفنن فى السهر.

نعمل إيه؟

- نعمل إيه يا جدعان؟

تيجو نروح المقطم؟

تيجو نتفرج على ماتش الأهلى فى التليفزيون.

تيجو نروح سيما؟

واحد يوافق وعشرة لا.

من الواضح أنهم كانوا يريدون تسلية لا تكلفهم الانتقال من مكانهم.. من هذه الناصية الجميلة عند أربعة مفارق يعبث بها الهواء فى الجهات الأربع..

إيه رأيكم يا جماعة.. تيجو نلعب شطرنج.

صمت..

تيجو نلعب شطرنج..لا أحد يتحمس.

تيجوا نلعب بفلوس..

واحد يرفع رأسه.. والآخر ينظر فى فتور..

إنهم أكسل من أن يكافحوا طول الليل فى سبيل شلن.

- إيه اللى يخلينا نتعب روحنا على شلن.

- تيجو نتراهن؟

- نتراهن عليه إيه؟

- على أى حاجة.. على أكل.. على شرب.. على أى حاجة.

- نتراهن على الدرة المشوى.. اللى ياكل أكثر يكسب الرهان..

- فى الحر ده.. يا ساتر.. دره إيه يا أخى.. إنت ما عندكش خيال أبدًا.. ده أنت حصاوى صحيح..

- على شرب البيرة.. إللى يشرب أكثر يكسب الرهان..

- حلوة دى.. بس عايزة فلوس يا أخ.. مين حايدفع؟

- أقول لكم.. نتراهن على الميه.. اللى يشرب ميه أكثر من التانى يكسب الرهان.. ريال أهوه.. كل واحد يطلع ريال.. واللى يشرب أكترنا يأخذ الفلوس كلها..

- حلوة..

وينظر كل واحد إلى الآخر..

وتدب الحيوية فى الشلة.. ويتململ كل واحد فى كرسيه.

رهان دمه خفيف.. هو لن يكلف أكثر من أن يصفق أحدهم للجرسون طالبًا دورق ماء وما ألذ شرب الماء فى الصيف.

ولن يحدث شيء مهما شربوا.. الماء الزائد سوف يشره الجسم عرقًا.. وفى الإمكان أن يشرب الواحد صفيحة إذا أراد.

فكرة.

وبعد دقائق كان الملل قد تبخر تمامًا.. وحل محله الحماس والاستعداد..

والظاهر أن صاحب الفكرة كان مفلسًا والظاهر أنه كان مطمئنًا لانتصاره لأنه كان يفرك يديه فى سعادة وينادى على الجرسون يطلب خمسة دوارق ملانة لحافتها..

وكان هناك صاحب جديد.. فى الشلة.. رجل سمين بجلباب بلدى.. لا يكف عن شرب الماء بطبيعته.. ما لبث أن تقدم فى حياء ليقول:

- ونا كمان عاوز أخش الرهان معاكم..

وبدأت الدوارق تدور تباعًا..

وبدأ الرجال الستة يكرعون الماء.. كل واحد يرفع الدورق على فمه ويكرع ويكرع.. لا يدعه إلا فارغًا ويصفق طالبًا دورقًا آخر..

وتألفت حلقة من المتفرجين من رواد المقهى يتابعون بحماس هذا الرهان العجيب ويراهن كل منهم على الرابح..

وكانت الحكاية تبدو لطيفة فى البداية.. ولم تكن تكلف الواحد منهم أكثر من أن يخرج منديله بين لحظة وأخرى ويجفف عرقه.. ثم يفتح أزرار قميصه.. ويروح بمنديله ثم يعود ليكرع.. بين صيحات التشجيع والتهليل والهتاف..

ولكن أعراض التعب ما لبثت أن بدأت تظهر على المتراهنين.. وبدءوا يتراجعون واحدًا بعد آخر.. حتى تبقى اثنان

يتبادلان الأكواب.. فى بطء.. وإصرار.. وقد تحولت المباراة بينهما إلى مسألة كرامة.. يشعل نارها الصفير.. والتهليل من الجانبين.. كل جانب يصفر للحصان الذى راهن عليه..

وكان الرجل السمين الذى يلبس الجلباب البلدى ماضيًا فى الشرب.. يكرع فى هدوء وإصرار الكوب بعد الكوب ويحدث بحلقه صوتًا يسمعه الرجل الآخر فيزداد غيظه.. فيتحامل على نفسه.. ويرفع كوبه.. وفى كل مرة يظن أنه موشك على الفوز.

ولكن الرجل السمين.. كان يفاجئه.. بأن يرفع الكوب التالى ويكرع.. ويعود إلى المصمصة بحلقه بهذا الصوت الذى يغيظ..

وأخيرًا.. سقط المنافس الأخير.. وأصبح من المقرر أن يفوز الرجل السمين.. بالرهان.

لقد شرب عشرة دوارق ملآنة لحافتها بالماء.

ولكن.. لدهشة الجمع.. لم يتحرك الرجل السمين.

ولم يمد يده.. ولم يفتح فمه.. وإنما بقى فى كرسيه جامدًا.. وقد تحجرت عيناه.. وشحب لونه.. وما لبث أن تهاوى فجأة فى مكانه كالشوال.

وفشلت كل المحاولات التى بذلتها الشلة لإسعافه.

وفى المستشفى.. قال الطبيب إن عنده سقوطًا فى الأحشاء.. وشللاً فى عضلات المعدة.. وصدمة.. وأنه يموت..

وبعد دقائق.. كان التمورجى يلف جثته فى ملاءة.. ويسلم حافظة نقوده إلى أحد مرافقيه.

وكان بها مائة.. جنيه.. غير الفكة الصغيرة.

ملّيمتر

كان ضابط المرور يضع علامات بالطباشير فوق الأرض عند مكان الحادثة ويقيس بمتر فى يده ويكتب ملاحظات فى نوته.. وكنت أقف فى انتظار الإدلاء بشهادتى وساقاى ترتجفان والعرق يتصبب من وجهى ودمى هربان.. وحولى حلقة من الزحام.. ورجل ممدد على الأرض يموت.. وثلاث عربات محطمة يتصاعد منها الدخان.. وأنين. وصراخ.. ونقالات تهرول يمينًا وشمالاً.. وأنا الوحيد الذى نجا بالمصادفة بعد أن شاهد الموت بعينيه.

وكانوا ينتظرون منى أن أقول شهادتى.. ماذا أقول.. أنا لا أكاد استجمع فى ذهنى شيئًا.. إن ذهنى ممسوح تمامًا من الرعب والمفاجأة.. كل شىء حدث فى ثانية.. فى جزء من الثانية..

أنا الذى أريد منهم أن يحكوا ما حدث.

ضابط المرور يقول إنى فرملت وزحفت بعربتى ٧٠ مترًا على

الأرض ثم انحرفت إلى اليمين وصعدت على الرصيف. ونجوت بجلدى من هلاك محقق.. ويشد على يدى قائلاً فى إعجاب:

أنت سائق ماهر.. لولا انحرافك إلى اليمين لاخترقت أسياخ الصلب واجهة عربتك ولثقبت صدرك ومت فى الحال فأمامك على بعد خطوات كانت تقف عربة نقل محطمة تبرز من مؤخرتها أسياخ صلب.. وبينها وبين عربتك كما ترى.. ملّى واحد.. ملّى.. يعنى موت أكيد لولا حسن تقديرك للموقف وفرملتك فى الوقت المناسب وانحرافك لليمين فى اللحظة المطلوبة.. لا بل جزء من اللحظة.. فى الجزء المطلوب.

لو تأخرت بالفرملة هذا الجزء من اللحظة.. لو تلكأت بانحرافك إلى اليمين لكنت الآن معلقًا فى سيخ مثل الكباب.

لو تعجلت الفرملة قبل الأوان.. لوقعت فى ساندويتش بين العربة امامك والعربة خلفك ولانسحقت عربتك الصغيرة.. وانهرست مثل قطعة جاتوه. ولكنت الآن.. لحمة مفرومة..

هذه معجزة.

لقد انسللت كالشعرة من العجين.

أنت سواق ممتاز.

أنت سواق ماهر.

الضابط يحكى لى هذه القصة.. وأنا استمع إليه ولا أفهم

حرفًا وكأنى رجل غريب عن الحادث وعن عربتى التى أركبها منذ عشرين عامًا.. وكأنى لست السواق البطل الذى دبر هذا الفرار المحكم من الموت.

كيف استطعت أن أفعل هذا؟

وأحاول أن أستجمع ذهنى وأتذكر.. فلا أتذكر شيئًا بالمرة.. كل ما حدث كان مجرد حركات عفوية.. خالية من التفكير ومن التدبير ومن الحبكة ومن المهارة التى يحكى عنها الضابط.. وأكثر من هذا.. عداد السرعة الذى انكسر زجاجه أمامى يشير بعقربه إلى ٩٦ كيلو/ساعة.. وهى سرعة غير قانونية يعاقب عليها قانون المرور الذى لا يسمح بأكثر من ٨٠ كيلو فى الساعة كحد أقصى.

ليس فى الحكاية مهارة إذن.. بل هى قيادة رديئة مثال للعجلة والتهور وارتكاب المخالفات.

لكن الضابط يهتف.. رائع.. لقد دبرت كل شىء بإحكام.. ورسمت كل خطوة بالملّى.. كأنك كنت تعلم بالكارثة من قبل.. هذا مثال للقيادة الناجحة.

وأنا فى النهاية.. سليم.. معافى.. ليس بى خدش.

شىء لا يصدق.

كيف حدث هذا؟

أهو القدر.

وكيف تدخل القدر فى ثانية.. فى جزء من الثانية..

أفكر.. وأجهد فكرى.. ولا أجد تفسيرًا واحدًا يقبله العقل.. وأتخيل الاحتمالات الرهيبة التى كانت فى انتظارى على بعد ملّى.. جسمى معلق فى أسياخ.. ومعجون فى ساندويتش. وأرتجف.. وأمسح العرق البارد الذى يشر على جبهتى.

ظلت هذه الأسئلة تروح وتجىء فى ذهنى طول النهار.

وتركت عربتى فى الجاراج للتشحيم وللإصلاحات الطفيفة التى استلزمها الحادث.. وعدت إلى البيت.. ولكنى لم أنم.. ولم يغمض لى جفن.

طول الليل أتخيل أسياخ الصلب وهى تخرق صدرى.. والساندويتش الرهيب الذى يسحقنى كالمعجون بين هيكلين من الحديد.. وأغمض عينى على حلم مرعب لأفتحها على كابوس.

وكان أول شىء فعلته فى الصباح هو قراءة الجرائد.

وكانت الحادثة مكتوبة فى الصفحات الأولى بعناوين حمراء ثلاث عربات تتحطم فى تصادم ويموت ركابها - ١٣ قتيلًا ثلاثة من الضحايا بين الموت والحياة.. عربة صغيرة تنجو من الدمار بمعجزة بفضل مهارة سائقها.. ونبذة عن سائقها الذى هو سيادتى وصورة وجيهة.

ومرة أخرى أقرأ فى عناية. الرواية التفصيلية لمهارتى.

ومرة أخرى أحاول أن أتذكر بلا جدوى.

وعلى الفطور.. قررت أنه ما دام الكل قد أجمعوا على مهارتى.. فلا بد أنى سائق ماهر بالفعل.

إن قلم مرور القاهرة لا يمكن أن يخطئ.. وضابط التحقيق لا يمكن أن يخطئ.

لا بد أنى سائق ماهر.. ومتواضع أكثر من اللازم.

واسترحت لهذا التفسير.

ومضيت أحكى لكل واحد عن مهارتى فى القيادة وعن المعجزات التى استطيع أن أحققها فى جزء من الثانية.. ثم أفتح الجرائد على الصفحات الرئيسية وأشير إلى صورى المنشورة.

وبمضى الوقت ازددت اقتناعًا بهذه المهارة حتى أنى عندما ذهبت إلى الجاراج لاستلام سيارتى بدأت أثرثر مع المهندس فى الميكانيكا وألقى عليه محاضرة وأبدى ملحوظات فى التصليح الذى قام به.. فى الموتور الذى ينقصه ركلاج.. والسلندرات التى ليس فيها بوش كاف.. والكورونا التى تحتاج إلى تشحيم.

وكان المهندس يبتسم طول الوقت.. والظاهر أنه تعود على الزبائن العباقرة فى الميكانيكا أمثالى.

وظل يستمع إلى حديثى الطويل ثم قال أخيرًا.. ان العربة كان فيها عيب غير هذه العيوب كلها.. عيب خطير كان يمكن أن يؤدى بى إلى الهلاك.

وسألته من طرف سيجارتى.. وأنا أتحدث بكل ألاطه.. عيب إيه فقال:

– الفرامل كانت بتفوت. كنت تدوس على الفرملة تفرمل بعد دقيقة.. وقباقيب الفرامل كانت سايبه من الثلاث عجلات وماسكة على عجلة واحدة بس.. العجلة اليمين إلى قدام.. يعنى لو كنت فرملت كانت العربية حدفت كلها يمين وطلعت بيك على الرصيف.. إنت كان ممكن تعمل حادثة فظيعة بالفرامل على حالتها دى.

وسقطت السيجارة من فمى وأنا أفكر بسرعة.. وأتذكر مهارتى التى أشادت بها الصحف.

ولأول مرة أضاء عقلى وفهمت كل شىء.. فأنا لم أكن السائق الماهر العبقرى الذى ضغط على الفرملة فى الوقت المناسب.. ولكنى ضغطت قبل الأوان والفرملة بسبب عطب فى أجزائها فرملت من تلقاء نفسها فى الوقت المطلوب.. ولم أنحرف بالعربة إلى اليمين ولكن العربة هى التى حدفت إلى اليمين لعيب فى الفرامل.. وبهذا نجوت من موت محقق بسبب عطب فى السيارة.. عطب جاء فى وقته.

وشعرت بالخجل لهذه المحاضرة فى الميكانيكا التى سقيتها للرجل الذى يفهم فى كل شىء أكثر منى.

وشعرت بخجل أكثر لهذه السمعة الكاذبة فى السواقة

والشهرة الطنانة فى الصحف.. وفى قلم المرور.

ومع هذا لم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل طول الطريق وأنا أقود عربتى عائدًا إلى البيت.. عن السر فى هذا الحظ.. السر فى تلك اليد السحرية التى امتدت فأعطبت السيارة لتنجو بى فى تلك اللحظة الحاسمة من موت أكيد.. كيف حدث.. كيف.. كيف؟!

كيف تأتى للقدر أن يتدخل فى آلات العربة.. وتروسها الحديدية.

وهذه المرة لم أنزلق إلى هوة الغرور التى انزلقت إليها فى المرة الأولى.. ولم أخرج بالتفسير المألوف بأنى حبيب الله المختار. أنقذتنى العناية الإلهية لأنها تدخر لى رسالة مقدسة فى المستقبل.

وإنما اعترفت بينى وبين نفسى.. أنى رجل جاهل.. جاهل جدًا.. لا أدرى شيئًا من أمر هذه الدنيا.

واكتفيت بأن أقول وأنا أمصمص شفتى فى استسلام.. الله أعلم.

خانكة

عنبر المجاذيب فى مستشفى الخانكة الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.. اثنان من المجاذيب يجلسان أمام النافذة ذات القضبان الحديدية يتحدثان باهتمام:

- عارف اللحمة إللى جابوها النهارده فى العشا.. فيها سم.. أنا شفت العسكرى وهو بيحط فى كل أروانة معلقة سم.. زرنيخ أبيض لونه زى لون الملح وعليه شطه عشان مايبانش طعمه.. كل أروانة معلقة سم. كل أروانة معلقة سم.. حايموتونا زى الكلاب.. شايف العسكرى اللى واقف تحت ده.. هو اللى حط السم فى الأروانات.. شايفه.. رايح جاى ازاى.. رايح جاى.. رايح جاى.. تحت الفانوس.. بقاله ساعة.. مستنى لما نموت كلنا.. وبعدين يلمنا ويحطنا فى عربية الكلاب وياخدنا على قرافة الكلاب ويدفننا.

- وبعدين.. حانعمل إيه فى قرافة الكلاب..؟؟

- حانموت.. لكن على مين.. أنا عرفت كل حاجة وضحكت عليه ولا كلتش من اللحمة.. شلت حتة اللحمة بتاعتى ورميتها فى صندوق الزبالة.

- والعسكرى حايموتنا ليه.

- العسكرى بيشتغل عند الدكتور.. والدكتور بيشتغل عند الحانوتى.. والحانوتى بيشتغل عند العمدة.. والعمدة هو اللى مدير المؤامرة دى كلها.

- ليه..

- أبويا قال له.. أبويا اعترف بالسر كله..

- سر إيه.

- سر الراجل المدفون تحت الشجرة.

- فيه راجل مدفون تحت الشجرة.

- تحت الشجرة اللى هناك.. أقول لك ولا تقلش لحد.

- قول..

- لا.. مش حاقول لحسن يقبضوا عليك معايا.. ويقولوا عليك شريكى.

- ما كل الدنيا عارفه إنى شريكك.. والبوليس عارف.. والمأمور عارف.. والجرانين بتكتب كل يوم.

- حايودونا فى داهية.

- مفيش حته نستخبى فيها..؟؟.

يصغى بأذنه..يسمع خطوات.

- سامع..سامع.. الدورية جايه أهه.. تعال.. تعال نستخبى تحت السرير قبل ما يضبطونا.

ينزلان تحت السرير.. يتكومان فى ركن فى الظلام.. ينظر كل منهما إلى عينى الآخر اللتين تلمعان كعينى القط.. ويرهفان السمع.. تبتعد الخطوات.

- مشيوا.

يتنفسان الصعداء.. يعود فينظر كل منهما إلى الآخر فى ريبة.

- بتبص لى كده ليه.. عينيك فيها خيانة.. أنا عارفك إنت مخبر من عند العمدة.

يتماسكان.. يوشك أحدهما أن يخنق الآخر.

- لو قلت لهم على الراجل اللى مدفون تحت الشجرة.. حاموتك..سامع.

- إنت مجنون.. وأنا معقول أودى نفسى فى داهية.. ما أنا حاروح معاك فى الحديد.

- مفيش حد معايا.. كل الناس ضدى.. كل العالم بيتآمر علىّ.. مفيش حته أمان أروح لها.. كل حته أروحها ألاقى فيها جواسيس.. كل حتة فيها أجهزة تسجيل السرير اللى احنا نايمين تحته فيه أجهزة تسجيل.. فيه ساعة.. حط ودنك على العمود..سامع.. تك.. تك.. تك.. فيه شريط تسجيل ماشى.

– وبعدين.. الحل إيه.. تيجى نفتح العمود ونكسره. كل يوم الصبح لما بيطلعونا بره عشان ينضفوا السراير ويغيروا الملايات.. بيجى العمدة يفتح كل سرير ويطلع الشرايط اللى فيه.

– والعمل إيه.

– أقولك.. ولا تقولش لحد.

– هيه..

– كل يوم بأغير السرير اللى بنام عليه.. النهارده على سرير.. امبارح على سرير.

صاحى له دايمًا ودانى فى وسط رأسى.. ولولا كده كان زمانى دلوقت فى السجن.

ويرهف السمع.

– سامع.. فيه حد بيتشعبط على الشباك.

يزحف من تحت السرير بحذر ويطل برأسه ثم يجذب زميله من ذراعه.. ويخرج الاثنان من تحت السرير ويختلسان النظر من النافذة.

– شفت مطرح رجليه؟؟.. العسكرى كان متشعبط على الشباك بيتسمع علينا.. ولما حس بنا طلع يجرى ورجع محله.. شايفه واقف يبص لنا ازاى ويصلح البندقية.. دخل راسك جوه لياخذ لك صورة.. البندقية فيها فوتوغرافية.. كل حتة دلوقت فيها فوتوغرافية.

– وبعدين.. حانعمل إيه.

– كل العالم ضدنا.. أنا امبارح قعدت طول النهار فى التواليت مستخبى لغاية ما جه التمرجى وطلعنى بالعافية.. ماسابنيش إلا أما اديتله سيجارة.

– مفيش فايده.. مفيش حل غير الهرب.. نهرب م الدنيا كلها.

– ونروح فين.؟

– نروح القمر. نركب صاروخ.. ونطلع الفضا ونسيب الدنيا باللى فيها.

القمر يضيء ويغمرهما بنوره طول الوقت.. ويبدو مستديرًا شاحبًا.. الاثنان يحملقان فيه.

– ونجيب الصاروخ منين.

– من عند جاجارين.

الاثنان يحملقان ويضيء وجهاهما بالأمل.

– يا سلام.. يا ريت نروح القمر.

– ونبعد عن العسكرى.

– ونرتاح م الدنيا.

تسمع خطوات واضحة سريعة فى الممشى الخارجى.

يسرع المجنونان كل منهما إلى فراشه.. ويلتحفان بالأغطية.. ويدعيان النوم.

يدخل الطبيب ومعه الممرضة.. يضىء النور.. ويفتش على العنبر.. يطفئ النور ويعود هو والممرضة.

* * *

فى المشى الطويل فى طريقهما إلى الأجزاخانة.. الطبيب والممرضة.

الطبيب يدخن فى شراهة.

الممرضة تهمس فى رقة.

– مالك النهارده؟. طول الوقت متضايق.. مش طبيعتك؟

– تعبان.. (ينفث الدخان فى حدة) متضايق من الدنيا..

يصلان إلى نهاية المشى حيث نافذة واسعة تطل على القمر يقف الطبيب معتمدًا على النافذة بذراعه محملقًا فى القمر.

الطبيب – حاسس إن كل الدنيا ضدى.. تصورى أبويا ما وافقش على جوازنا.. وحلف يمين بالطلاق من أمى لو اتجوزت من وراه ليطلقها.. وأمى بتلعن اليوم اللى خلفتنى فيه.. وبتفتش جيوبى.. وبتقرأ جواباتى.. وبتعيط.. وبتترجانى.

الممرضة – أنا كنت حاسبه حساب ده كله.

– والممرضات زميلاتك بعتوا شكوى فينا للمدير والتمرجية

بيتجسسوا علينا.. ما بقالناش عيشة هنا.

– حاتروح فين؟.

– ما بقلناش عيشه فى الدنيا دى.

ينظر إلى القمر ويضىء وجهه فى أمل طفل.

– نفسى أروح بعيد.. بعيد.. أروح القمر.. مش فيه صواريخ دلوقت بتروح القمر.. إيه رأيك.. نسيب الدنيا كلها باللى فيها.. ونروح القمر.

اللص

أصوات شارع الخان تضيع فى ورشة الخياطة التى يملكها يعقوب صاروفيان. وكركرة الماكينات وهى تعمل تغطى على أبواق السيارات وصخب المارة.. والصبيان وهم يتداولون البروفات لتشطيبها وتركيب الزراير والعراوى.. وخبطات المكوه على البنك.. وصوت مقص التفصيل.. كل هذا يخلق جوًّا يشبه جو خلية النحل.

ولكن الأسطى يعقوب صاحب الورشة مشغول عن خليته. إنه يدخن أمام الباب وينظر إلى صف من قصارى الزرع ويبادلنى حديثًا هامسًا.

والأسطى يعقوب أرمنى أصبح مصريًّا بحكم الإقامة الطويلة ولم يبق من جنسيته القديمة إلا ذكاؤه الحاد وأنفه التى تشم المكسب على بعد ميل.

ولكن فى الأسطى يعقوب شيئًا آخر غير المصرية والأرمنية إن شفتيه الرقيعتين المطبقتين وما حولها من تجاعيد رفيعة تكشفان عن قسوة.. وضراوة.

وهو حينما يتحدث تبدو أسنانه البيضاء الصناعية كأنها مرسومة وغير حقيقية.. وغير آدمية أيضًا.

وكان فى تلك اللحظة يروى لى ما حدث عندما زاره معاون الصحة ليفتش على الورشة ومدى مطابقتها للتعليمات الصحية.

– ودخل يا سيدى هنا. وهنا.. وقال لى ناقص حوض غسيل.. وتواليت.. وشباك يفتح ورا عشان التهوية.. وشغلانه طويلة عريضة تعوز لها ميتين جنيه.

– قلت له ما أقدرش أدفع ولا مليم.. والورشة كده كويسة.. وصحية.. وعال.

– هيه..

– وبعدين قال لى ده كلام غير قانونى.. ومعناه إن احنا نكتب مذكرة.. وإنك تتحبس وتدفع غرامة.

– وبعدين.

كان يبتسم ابتسامة عريضة وينظر إلىّ فى عتاب.. كأنما يستكثر علىّ أن أشك فى ذكائه إلى هذه الدرجة.

– وبعدين إيه يا محمد أفندى.. هو معقول يعنى حادفع

غرامة.. واتحبس.. وأدخل السجن.. عشان حاجة هايفة زى دى؟؟!

– يعنى عملت التصليحات المطلوبة.

تصليحات إيه.. إنت جرى لمخك إيه يا محمد أفندى.

– أمال إيه.

فضحك وكركر بالضحك.. وبانت أسنانه المدببة.

– عملت تصليحات من نوع تانى.. صلحت له مزاجه بجنيه.. أخده فى السر.. وحطه فى جيبه.. واقتنع بأن الورشة كويسة.. وأنها صحية.. وكتب أنها مطابقة للمواصفات.

– كده على طول.. بالسهولة دى.

– زى ما اقتنع مفتش الضرائب بالسهولة دى احنا مفلسين.. وكتب أن الدفاتر مسددة.. وأن علينا كام مليم بس ضريبة.

– غريبة.

ولا غريبة ولا حاجة يا صاحبى.. الدنيا كلها ماشية كده.. أعمل إللى يعجبك بس يبقى معاك ورقة مختومة بأنك ماشى بالأصول.. اسرق زى ما أنت عاوز بس خليك قانونى المهم احترام القانون.

وضحكت على هذه الطريقة فى احترام القانون.

ويبدو أنه أدرك ما يدور فى ذهنى لأنه قال:

– ما هو فى الحقيقة مفيش قانون.. فيه أوراق وأختام وامضاءات بس.. الدنيا كلها ماشية بإمضاءات.. الناس بتتوظف بامضاءات.. وتطلع براءة بإمضاءات.. وبيتحجز عليها بإمضاءات.. وتتجوز بإمضاءات.. وتتطلق بإمضاءات والحرب بتقوم بإمضاء.. وتنتهى بإمضاء.

– الحرب.

– أيوه أمال.. حتى الحرب.

– أيوه صحيح.

وسكت.. وسرحت قليلًا وأنا أنظر إلى وجهه بحدة وفى شفتيه الرقيقتين وأسنانه البيضاء التى تبدو كأنها مرسومة وغير حقيقية وغير آدمية.

وكان يبدو لى فى تلك اللحظة.. أن الحرب لا تقوم لأن هناك إمضاء.. ولا تضع أوزارها لأن هناك إمضاء.. وإنما هى فى الحقيقة تقوم لأن هناك ناسًا على هذه الشاكلة.. وبهذه القسوة والضراوة.

ومرت فترة ثقيلة من الصمت ثم عدت أسأله:

– وعملت إيه فى الصبى اللى سرق البكرة.

– بلغت البوليس وكرشته.. ومعقول أشغل معايا حرامى.

– مسكين.. ما عرفش ياخذ البكرة بإمضا.

وابتسم الأسطى يعقوب على هذه النكتة.

ولم أجد شيئًا أقوله.. ولم أجد رغبة فى الكلام.

وخيم علينا الصمت.

وارتفعت أصوات الماكينات وهى تعول.. وكانت أصواتها تبدو آدمية.

فهرس

صفحة

هذه المجموعة

تحرص دار المعارف دائما على تقديم الأعمال الكاملة لكبار المفكرين والأدباء. والدكتور مصطفى محمود واحد من هؤلاء الذين أخلصوا للقلم . فأثرى ساحة الفكر والعلم . . وطرق أبوابا جديدة لم تفتح من قبل . . فتنوع إنتاجه بين القصة والرواية والمسرحية وأدب الرحلات . . إلى جانب تلك المؤلفات التي تحفل بالنظرات المعاصرة للفكر الديني والمقارنة بالنظرات العلمية الحديثة . . والتي لاتزال تثير مزيدا من الجدل المفيد .

وقد امتد تأثير فكر الدكتور مصطفى محمود إلى القراء العرب من الخليج إلى المحيط كما ترجمت بعض أعماله إلى اللغات الأجنبية شاهدة بقدرته على العطاء المتميز المتنوع .